نظرات
في كتاب الله الحكيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسّام نـهاد جرّار

مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية

البيرة – فلسطين

ص.ب: 3763

هاتف: 2402088

فاكس: 2401346

البريد الالكتروني: noon@p-ol.com

الصفحة الالكترونية: www.islamnoon.com

الطبعة الأولى

1424هـ -2004م

الفهرست

الموضوع	الصفحة
الفهرست	5
المقدمة	7
القرآن ومنهجية التفكير	9
القرآن يصحح	20
وما هو على الغيب بضنين	26
وعلّم آدم الأسماء	29
زُيِّن للناس	32
فهل من مدّكر	35
يأجوج ومأجوج	39
وكيف تصبر	45
لأَقتُلنّك	48
ثمّ ادعُهنّ	51
إن لبثتم إلا عشراً	55
القوامة حقٌ للمرأة	58
إذ تسوّروا المحراب	61
نظرات في سورة يوسف	66
الرؤى تصنع الأحداث	67
وقطّعن أيديهن	71
وأعلمُ من الله	76

ونحن عُصبة!!	79
اجعلني على خزائن الأرض	83
وَجَاء بِكُم مِنَ الْبَدْوِ	86
ألفاظ ودلالات	90
من أسرار البلاغة القرآنيّة	94
يحيى عليه السلام	101
تشابه مُلهم	106
الخاتمة	110
مركز نون	111
من إصدارات مركز نون	115

مقدّمـــة

هي نظرات في كتاب الله الحكيم. وهي نظراتُ مخلوقٍ محدود العلم ينظر في كتاب الخالق مطلق العلم، وهي نظراتُ من يؤمن بأنّ فهم السلف لا يُعفي الخلف من مسئولياتهم تجاه هذا الكتاب العزيز. وهي نظرات من يؤمن بأنّ أعظم الخلق فهماً لا يُحيط بـــشيء مـــن العلم إلا بما شاء الله.

هي محاولة لإعادة النظر في تفسير بعض الآيـــات الكريمـــة، لعلمنا أنّ ما جاء فيها من تفسير لم يشف الغليل. ولا نزعم أنّ مـــا نقدّمه من نظرات يُغني السائلين ويُقرّ أعين الناظرين، ولكن يكفينـــا أن نثير لدى المسلم الواعي الدافعيّة إلى إعادة النظـــر فـــي تفـــسير كتاب الله الحكيم، وإكمال مسيرة المفـــسّرين الكـــرام مـــن الـــسلف والخلف الصالح.

القرآن الكريم كتاب عزيز، وهذا يعني ضرورة أن نعيد النظر فيه وأن نكرر. ولا نخشى عليه من قصور المتدبّرين، لأنّـــه كفيـــل بتصحيح الأفكار وتقويم الأفهام. أمّا أولئك الذين يَتّبعون ما تـــشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فإنّهم لا يَخْفَونَ على أهل الـــصدق والإخلاص، وهم فتنة لا بُدّ منها في كل عـــصر، تتـــشرّبها القلـــوب المفتونة. أما القلوب الزكيّة فلا يضرّها فتنة بإذن الله تعالى.

يُستهلّ الكتاب بمقال حول القرآن الكريم ومنهجيّة التفكير. وقد حرصنا على أن تتضمّن المقالات الأخرى مناقشات لبعض الآيات الكريمة بهدف طرح تدريبات منهجيّة تساعد في التعامل مع النص الكريم. ونتوقّع أن يلمس القارئ فائدة هذه المنهجيّة من خلال ما يُطرح من معانٍ جديدة تتجلّى كثمرةٍ من ثمار هذه المنهجيّة.

لم نقصد أن تكون هذه النظرات تفسيراً تفصيليّاً للآيات الكريمة، كما هو الأمر في كتب التفسير، ولكنّها نظرات صيغت بعبارات قصيرة وسريعة، تحتاج إلى توقّف وتأمّل. أمّا أولئك الذين لا يملكون معرفة قرآنية مناسبة فقد يجدون صعوبة في فهم بعض المقالات، عندها ننصح بالرجوع إلى بعض كتب التفسير المبسّطة، فإنّ ذلك يساعد في الفهم المنشود.

هي نظرات نأمل أن تُضيف في التفسير، واللغة، والتاريخ، والاجتماع، والنفس، وطرائق البحث والاستنباط، ومنهجيّة التفكير.

ربّ اغفر لي ولوالديّ

ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً

بسّام نهاد جرّار

البيرة – فلسطين

16 / 12/ 1424 هـ

7 / 2 / 2004م

القرآن
ومنهجية التفكير

القرآن الكريم يزيد قليلاً عن 77 ألف كلمة، وهذا يعني أنّه يعادل كتاباً من **300** صفحة تقريباً. ومثل هذا الحجم لا يتضمن ، في العادة، الكثير من المعلومات والمعارف والخبرات. وعلى الرغم من ذلك فقد أحدث القرآن الكريم تغييراً هائلاً وجذرياً في مسيرة البشرية الفكرية والسلوكية، مما يجعلنا نتساءل عن سر الانطلاقة الفكرية التي حدثت بعد نزوله. **وظاهر الأمر أنّ السر لا يكمن في الكم الهائل من المعلومات، لأنّ مقدار 300 صفحة لا يكفي في العادة لإعطاء إلا القليل من المعلومات. والذي نراه أنّ السّر قد يكمن في المنهجية التي يكتسبها كل من يتدبر القرآن الكريم.**

عند تَصفُّح أي كتاب نجده في الغالب يتسلسل في الفكرة والمعلومة من البداية حتى النهاية، ويرجع هذا الأمر إلى رغبة الكاتب في إعطاء القارئ المعلومات والخبرات. ولكن من يتصفّح القرآن الكريم يلاحظ أنّ اكتشاف التسلسل يحتاج إلى تفكر وتدبر. من هنا نجد أنّ غير العرب يشعرون عند قراءة ترجمة القرآن الكريم بأنه غير مترابط في كثير من المواقع. ويرجع هذا إلى أنّ القرآن الكريم يخالف في صياغته مألوف البشر، ثمّ إنّ كلماته المعدودة تحمل المعاني غير المحدودة. ولا ننسى أنّ إعجازه بالدرجة الأولى يرجع

إلى لغته، وبيانه وإيجازه...وأنّ فهمه يحتاج إلى تدبر. ويلحظ أنّ من يعتاد تدبره تنشأ لديه منهجيّة في التفكير والاستنباط. وإذا وجدت هذه المنهجيّة أمكن أن يوجد الإنسان المبدع. وكل من يتعمق في تدبّر القرآن الكريم ودراسته يلمس الترابط بين معاني كلماته، وجُمله، وآياته، بل وسوره. ولا يزال علماء التفسير يشعرون بحاجتهم إلى التعمق أكثر من أجل إبصار معالم البنيان المحكم للألفاظ والجمل القرآنية.

الدارس لتاريخ الفكر الإسلامي يلاحظ أنّ ظهور علم أصول الفقه، وعلم أصول الحديث، وعلم الكلام، وعلم النحو والصرف، كل ذلك كان قبل ظهور علوم مثل؛ الطب، والصيدلة، والكيمياء، والبصريات...وغيرها من العلوم. من هنا فقد ظهر العلماء والفقهاء واللغويون من أمثال مالك، والشافعي، والخليل بن أحمد، قبل ظهور الرازي، وابن سينا، وجابر بن حيّان، وغيرهم. وهذا أمر بدهي؛ فعلم أصول الفقه هو علم في منهجيّة الاجتهاد والاستنباط. وعلم أصول الحديث هو علم في منهجية البحث التاريخي. وعلم النحو هو علم قائم على منهج الاستقراء. وعلم الكلام هو الأساس الفلسفي للفكر الإسلامي.

فيما بعد أدّى التطور في منهجيّة التفكير لدى المسلمين إلى ظهور العلوم المختلفة؛ فكانت البداية تتعلّق بالأسس المنهجيّة، وكانت الثمار تتمثّل بالعلوم المختلفة، ومنها العلوم الكونيّة. ويمكننا اليوم أن نقسّم تاريخ الفكر البشري إلى مرحلتين؛ **مرحلة ما قبل الإسلام، ومرحلة**

ما بعد الإسلام، حيث تميّزت المرحلة الثانية بمنهجيّة مستمدة من القرآن الكريم، أدت إلى نهضة فكرية وعلمية هائلة أفرزت في النهاية الواقع العلمي المعاصر، حيث من المعلوم أنّ الغرب قد تتلمذ على المسلمين، وعلى وجه الخصوص في الأندلس وجامعاتها، إلى درجة أنّهم لم يعرفوا سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وغيرهم من الفلاسفة الغربيين، إلا من خلال ترجمات علماء المسلمين.

إذا كان القرآن الكريم قد طوّر منهجيّة التفكير لدى الصحابة والتابعين وأتباعهم...فلماذا لا يؤثر اليوم في منهجيّة التفكير لدى كثير من المسلمين، والذين يتلونه صباح مساء؟!

للإجابة عن هذا التساؤل نقول: اللافت للانتباه أنّ الغالبية الساحقة ممن يقرأ القرآن الكريم اليوم لا تزيد على أن تتلوه بصوت مسموع، أو بشفاه متحركة، ويندر أن نجد من يقرؤه متدبراً لمعانيه، متفكراً في مُشكلاته؛ **إذ لا تتشكّل منهجية التفكير لدينا إلا عند تسريح الفكر في معانيه، وتراكيبه، وأساليبه، وتصريفاته...**

والدارس لتاريخ التفسير والفقه، ومناهج المفسرين والفقهاء، يدرك أنّ هذه المنهجية قد تجلّت لدى المفسرين والفقهاء المجتهدين؛ أي لدى الذين تعاملوا بعمق مع النص القرآني الكريم. وحتى يتحقق الأثر المنشود على مستوى مناهج التفكير، لا بد أن نضيف إلى تلاوة القرآن الكريم التدبّر، بل لا بد من تقديم التدبر على التلاوة، والفهم على الحفظ. ولا شك أنّ المتدبر الحافظ هو أقدر من غيره على النظر بشمول إلى القرآن الكريم، وهو الأقدر على تفسير القرآن بالقرآن، ثم

هو الأقدر على الملاحظة والربط، إلا أنّ مداومة النظر في القرآن الكريم قد تغني عن الحفظ، مع إقرارنا وتأكيدنا أنّ الحفظ هو من مقاصد التربية القرآنية.

الصحابة والتابعون، رضوان الله عليهم، وهم أهل اللغة والبيان، عندما كانوا يتدبرون القرآن الكريم، فيشكل عليهم، يأخذ ذلك حظاً من تفكيرهم، ويلجأ بعضهم إلى بعض يتشاورون؛ فهذا معاوية، رضي الله عنه، يدخل عليه عبد الله بن عباس، فيقول معاوية: "**لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك**". ويعرض عليه آية من الآيات التي استشكلها، فيبيّنها عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما. وهذا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي أكثر من موقف، يجمع الصحابة ويناقش معهم معنى آية كريمة أو أكثر. أما اليوم فيكتفي الكثير من الناس بالرجوع إلى كتابٍ من كتب التفسير عند استشكال معنى آية من الآيات، ويندر أن يتمّ الرجوع إلى أكثر من كتاب في التفسير، ويندر أيضاً أن تتم مناقشة ذلك مع آخرين للتوصل إلى فهم أفضل. فلا عجب بعد ذلك أن لا تتشكل عند الكثيرين منا المنهجيّة المأمولة. في المقابل لا عجب أن يتأثر الصحابة والتابعون بالقرآن الكريم، ثم تتشكّل لديهم المنهجيّة في التفكير، فيظهر أثر ذلك فيما تحصّل من تطوّر سريع ومتصاعد على مستوى الفكر، والمعرفة، ومناهج البحث، والعلوم المختلفة، حتى بلغ كل ذلك أوجهُ في القرن الرابع الهجري.

ويجدر في هذا المقام أن نشير إلى تجربتنا في (**ندوة نون**)، حيث يُكلّف كل شخص من المشاركين في الندوة أن ينظر في عدد من كتب التفسير، ويتفكّر في معاني آيات معيّنة، ويكون ذلك في مدى أسبوع. فإذا كان عدد المشاركين عشرة أشخاص، مثلاً، فإنّ ذلك يعني أنّ المجموع قد اطلعوا على ما لا يقل عن ثلاثين تفسيراً. وقد يرجع الشخص الواحد إلى أكثر من عشرة تفاسير. وفي يوم الندوة تتم مناقشة الآيات الكريمة، ويكون التوقّف طويلاً عند الآيات التي تُشْكِل. ويتاح لكل شخصٍ أن يطرح آراءه ووجهات نظره التي تُناقش، فتُعزز أو تُفنّد. وقد لوحظ أنّه، وفي كل جلسة، تتجلى معانٍ، وتتفتح مغاليق، بل وتبرز إبداعات في الفهم نأمل أن يكون لها شأن في تفسير القرآن الكريم. والمراقب للندوة يلاحظ تميّز المشاركين فيها بمنهجيّة في الاستنباط والتفكير.

تؤكد مسيرة التفسير عبر القرون الماضية على حرص المفسرين على اتخاذ فهم السابقين أساساً في بناء فهمهم الخاص؛ فليس بإمكان أحد أن يستغني عن فهم السلف في التفسير لأسباب من أهمها:

أ- أنهم أهل اللغة، وعنهم أخذنا علومها .

ب- حرصهم على نقل ما صحّ عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في تفسير القرآن الكريم، وكذلك ما صحّ عن الصحابة والتابعين.

قلنا إنّ عدد كلمات القرآن الكريم يزيد قليلاً عن **77** ألف كلمة، وهذا يعادل **300** صفحة. ويتضمن القرآن الكريم **114** سورة؛ منها السور الطويلة، والسور القصيرة. ولا تزيد أطول سورة عن **24**

صفحه، في حال أنّ كل صفحة تتألف من **260** كلمة، في حين تتألف أقصر سورة من **عشر** كلمات. أما باقي السور فهي بين ذلك طولاً وقِصراً. وتتألف كل سورة من عدد من الآيات، وإذا عرفنا أنّ متوسط عدد كلمات الآية الواحدة هو **12.4** كلمة، وأنّ بعض الآيات تتكون من كلمة واحدة أو كلمتين، تبيّن لنا أنّ هذا الأسلوب يختلف عما اعتاده البشر في كتاباتهم. وقد يكون هذا المنهج في العرض من أسرار تأثير القرآن الكريم. والمتدبّر يلاحظ أنّ الآيات المكيّة غالباً ما تتسم بالقصر، في حين أنّ الآيات المدنية، إجمالاً، تتسم بالطول النسبيّ. ومعلوم أنّ التركيز في المرحلة المكيّة كان على الجانب العَقَديّ، **وهذا يعني أنّ طرح العقيدة يحتاج إلى الأفكار المركّزة والسريعة، بعيداً عن التطويل والتفريع.** وهذا يرشدنا إلى اعتماد أسلوب الشِّعار في الدعوة إلى الأفكار والعقائد، فذلك أسرع في تبليغ الفكرة وتعميمها، وأسهل تناولاً. أما أسلوب الفلاسفة، فلا يصلح إلا لفئة قليلة متخصصة. **ومن ينظر في سورة الإخلاص، مثلاً، يلاحظ أنها شعار واضح، ورسالة سريعة وحاسمة، تجلجل بعقيدة التوحيد: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد"**. وهذا يرشدنا إلى المنهجيّة التي يجدر أن نتبعها عند مخاطبة عامّة الناس، وفي الدعوة إلى الفكرة والمبدأ، **ويدعونا إلى الاستفادة من منهجيّة القرآن المكي والمدني، لتوظيفها في مخاطبة الناس، بحيث يكون لكل مقامٍ مقال .**

في أكثر من مرّة أعرضنا عن شراء كتب نفيسة بسبب أسلوب العرض فيها؛ حيث السرد المتواصل، فلا تبويب، ولا فقرات، ولا علامات ترقيم... ولو عُرِضت علينا مثل هذه الكتب بالمجّان لترددنا في أخذها، لعِلمنا أنّها ستأخذ من مساحات رفوف المكتبة، ولعِلمنا بأن لا دافعيّة لدينا لقراءَتها، بل إنّ القراءة فيها ضرب من المعاناة. وقد تُفاجأ بعد حين بمثل هذا الكتاب وقد طُبع بثوب جديد، وقُسّم إلى فُصول وأبواب، وازدان بالعناوين الواضحة، والفقرات القصيرة، ولوّنت بعض العبارات الهامّة، ووضعت الفواصل والحدود بين الفصل والفصل، والباب والباب، والفقرة والفقرة، والجملة والجملة... نعم، فبإمكاننا الآن أن نركز على التفاصيل، وأن نُلمّ بكُلّ صغيرةٍ وكبيرة، فقد أصبح الوضوح نوعاً من الجمال الجذّاب، والمتعة الدافعة. فلا بُد من الفصل والتحديد، حتى يتسنّى للقارئ أن يركّز ويميّز. **ألا ترى أنّ القرآن الكريم يتألّف من 114 سورة، وكل سورة هي عدد من الآيات؟!** وكما أسلفنا لا يتجاوز عدد كلمات الآية الواحدة في المتوسط **12.4** كلمة. وهل من قبيل الصدفة أن تسمّى (**السورة**) سورة؛ فكلمة السورة تذكِّرُنا بالسُّور، الذي يفصل بين قطعة أرضٍ وأخرى، وبيتٍ وآخر. وهل من قبيل الصّدفة أن تسمّى (**الآية**) آية؛ فالكلمة تُذكرنا بالعلامة الواضحة، والتي يُشكّلُ وُضوحها دليلاً هو في النهاية حجّة وبرهان.

قلنا إنّ الكتّاب، في الغالب، يهدفون في كتاباتهم إلى تزويد الناس بمعلومات وخبرات جديدة، لذلك فهم يتسلسلون في الأفكار من

البداية حتى النهاية، ومن ذلك تتسلسل الأبواب والفصول، ويكون ذلك واضحاً غاية الوضوح، وإلا عُدّ خللا وقصوراُ. وهذا أمر مفهوم في العمل الذي يُقصد به نقل المعلومة والخبرة. أمّا إذا أردنا الحث على التفكير والتدبّر، وخلق المنهجيّة السويّة في التفكير والبحث والاستنباط، فإن أسلوب العرض يجب عندها أن يختلف؛ فلا نعود بحاجة إلى التسلسل الواضح، بل نكون بحاجة إلى التسلسل الذي يجتهد القارئ في اكتشافه.

عند تدبر القرآن الكريم نقوم أولاً بتدبر الآية، فإذا فهمنا معانيها يصبح من السهل علينا بعد ذلك أن نربط بين آيةٍ و أخرى. وبعدها يفترض أن نلحظ أنّ آيات السورة جاءت في مجموعات، فإذا فُهمت معاني المجموعة الأولى، ثم فُهمت المجموعة الثانية، أمكن أن نربط بين معاني المجموعات. وبعد أن ننتهي من فهم سورة كآل عمران، مثلاً، نقوم بتدبر سورة النساء، فإذا فهمناها؛ كلمات وجُملاً، وآيات، ومجموعات، أصبح بإمكاننا أن نربطها جميعاً بسورة آل عمران التي تسبقها. ولا يسهل علينا أن نربطها بسورة المائدة، التي تليها، حتى نتدبر سورة المائدة أيضاً، وذلك في مستوى الكلمات، والجمل، والآيات والمجموعات؛ فكمال الفهم للسورة الأولى، و كمال الفهم للسورة الثانية، يؤدي إلى استكشاف الروابط والصلات بين السورتين، وهكذا... وتكون المفاجأة أن نكتشف أنّ القرآن يفسر القرآن، ويتجلّى لنا بناءاً متكاملاً متراصاً. وسيبقى الإنسان ينظر في

تفاصيل هذا الكتاب العظيم في محاولتهِ لتصوّر البناء الكلي في صورة أفضل، كما يفعل وهو يحاول أن يفهم الكون.

المتدبر للقرآن الكريم يلحظ أنّ بعض القَصص القرآني قد تكرر في أكثر من سورة. والذين يظنون أنّ القرآن الكريم نزل فقط ليزوّد الناس بمعلومات ومعارف يرون في التكرار ظاهرة غير إيجابية، وهم بذلك يذهلون عن حقيقة أنّ القرآن الكريم يربّي الناس تربية شاملة، ومن ذلك تربيتهم على منهجيّة التفكير. والملحوظ أنّ القَصص القرآني يختلف جذرياً عن القصص البشري، السرديّ المفصّل، بل هو، إن صحّ التعبير، لقطاتٌ قد تطول قليلاً وقد تقصُر، ولكنها إن طالت تبقى في إطار القصة القصيرة، بل القصيرة جداً. أما التكرار فهو ظاهري يتوهمه من يتلو القرآن الكريم من غير تدبّر، أما أهل التدبّر فيعلمون أن لا تكرار إلا في الشكل، أما في الجوهر فلا تكرار. من هنا نجد من المناسب أن نلفت الانتباه إلى الآتي:

1. القول بتكرار القصة القرآنيّة لا يعني أنه يتم تكرارها تفصيلياً، بل قد تزيد أو تنقص في بعض التفاصيل والحيثيّات.
2. تختلف السياقات التي يتكرر فيها القَصص القرآني، مما يعني أنّ المعنى المستفاد يختلف باختلاف السياق.
3. تُستبدل بعض المفردات أو الجُمل بغيرها، ويكون تقديم وتأخير في الألفاظ والجمل، ويختلف الجَرْس، وتختلف الموسيقى، وتختلف فواصل الآيات.

4. واضح أنّ أهداف القصة القرآنية يغلب أن تختلف عن أهداف القصة في كتابات البشر، من هنا تتعدد المقاصد عند تكرار القصة.

5. إن مثل هذا الأسلوب في التكرار **يطوّر في منهجيّة التفكير** لدى المتدبّر، لأنه يلاحظ الأنماط المحتملة، والصيغ التي يمكن أن تتعدد، ثم يلاحظ التغييرات المطلوبة لتحقيق الانسجام مع السياق؛ من حيث المعنى والجوهر، ومن حيث الشكل البلاغي، أي الثوب الذي لا بد أن تتجلى فيه المعاني. ثم هو يلاحظ البدائل الممكنة من أجل خطاب مؤثر ومنتج...وحتى تتضح الفكرة نضرب مثالاً من الطبيعة :

تتألف المادة من إلكترونات وبروتونات ونيوترونات. ومجموع هذا يسمّى **ذرّةً**، ومجموع الذّرات يسمّى **جُزيئاً**، ومجموع الجزيئات يسمّى **مُركّباً**. ومن هذه الذرات، والجزيئات، والمركبات، تكون التنوعات التي تبدو لا متناهية. ولو أخذنا عنصر **البوتاسيوم**، كمثال، فسوف نجد أنّ اختلاف نسبة هذا البوتاسيوم في النباتات المختلفة يؤدي إلى اختلاف الأطعام. ولا يقال إنّ طعم الموز، مثلاً، هو نفسه طعم التفاح على اعتبار أنّ مردّه إلى البوتاسيوم؛ فقد أدى اختلاف النسبة في البوتاسيوم إلى اختلاف كبير في المذاق. وإذا تعمّقنا أكثر نجد أنّ مكونات التفاحة هي في الحقيقة إلكترونات وبروتونات ونيوترونات. وهذه هي نفسها مكونات الحديد، والنحاس،...

فالتكرار في عالم المادة هو الأساس الذي يقوم عليه كل التنّوّع والثراء الذي يتصف به الوجود، وإذا كان تكرار الكلمة لا بد منه، وتكرار الجملة لا بأس به، فإن لتكرار القصة فوائد كثيرة، حيث يؤدّي

ذلك إلى ظهور أبنية جديدة، ويعطي صوراً متنوعة، ويلهم آفاقاً رحبة، ويكشف عن دروس غنيّة، ويخلق منهجيه في التفكير والاستنباط. وعليه فإنّ المطلوب هنا أن نركّز الاهتمام من أجل محاولة استكشاف الأنماط التي تؤسس لمنهجيّة سويّة.

القرآن يُصحِّح

نص القرآن الكريم، في سورة يوسف، على دخـــول يعقـــوب، عليه السلام، وجميع أبنائه مصر، والآيات الكريمة توحي بـــأنهم قـــد سكنوها واستقرّوا فيها. **وليس هناك ما يشير إلى أنهم لـــم يخرجـــوا منها حتى أخرجهم موسى، عليه السّلام.** ومعلوم في التاريخ أنّ المدّة بين يوسف وموسى، عليهما السلام، لا تقل عن أربعمائـــة وخمـــسين سنة. ومعلوم أيضاً أنّ مُلك الهِكسوس، وكذلك الفراعنة من بعدهم، قد شمل بلاد الشام.

على ضوء ذلك من المتوقّع أن ينتشر أبناء يعقوب، أي **أبناء إسرائيل**، وأحفاده خارج القطر المصري، ولا مسوّغ للجزم ببقـــائهم جميعاً في مصر. هذا يفسر ما ورد في لوح مرنبتاح ابـــن رمـــسيس، والمعروف عند المؤرخين بلوح إسرائيل، حيـــث يـــنص الفرعـــون مرنبتاح على إبادته لإسرائيل التي كانت تسكن بلاد الشام. والعبـــارة الواردة في اللوح هي: " **وإسرائيل أُبيدت ولن يكـــون لهـــا بـــذرة** ". ويبدو أنّ قطاعاً من المستضعفين من بني إسرائيل قد تسرّبوا، فـــارّين من الاضطهاد الفرعوني، وانضموا إلى أقاربهم الذين ســـبقوهم إلـــى بلاد الشام، خلال السنين المتطاولة التي سبقت عصر الاضطهاد، مما جعل مرنبتاح يعمل على اجتثاث هؤلاء، حتى لا يكونوا بؤرة جـــذب لكل من يصبو إلى التحرر من عبودية الفراعنة. ومما يؤكّد ذلك مـــا

ورد في بند من بنود معاهدة عُقدت بين أحد ملوك الفراعنة وملك الحيثيين، حيث ينص هذا البند على تسليم الهاربين والمجرمين والمهاجرين من إحدى الدولتين إلى الأخرى.

جاء في الآية 83 من سورة يونس:" **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم...** " وهذا يعني أنّ قلّة من الشباب هم الذين آمنوا لموسى، عليه السلام، أمّا بقيّة الشعب من بني إسرائيل فاختلفت مواقفهم؛ فمنهم من استمرأ الذل وركن إلى الواقع، ومنهم من هو على استعداد أن يلحق بالمؤمنين في حال هجرتهم. ولا يُتصوّر أن يخرج الشعب الإسرائيلي بالكامل، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين ارتبطت مصالحهم بمصالح الفراعنة، ممن هم مثل قارون: " **إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم...**" القصص:76. بل إنّ هناك ملأ من بني إسرائيل كانوا يعملون لصالح نظام الفراعنة، بدليل قوله تعالى في آية سورة يونس:" **على خوف من فرعون وملئهم** ... " وكيف يمكن لشعب يعد بمئات الألوف، بل هو أكثر من ذلك، أن يخرج خلسة، وأنّى لغير المؤمن منهم أن يثق بموسى، عليه السلام، فيخرج إلى عالم المجهول ؟! بهذا نكون قد خلصنا إلى نتيجة تقول: **هناك ما يدل على خروج بعض أبناء إسرائيل قبل مجيء موسى، عليه السلام، إلى مصر. ولا يوجد ما يُثبت خروج كل بني إسرائيل مع موسى، عليه السلام**، بل إنّ الأقرب إلى العقل ومنطق الأمور أن تبقى الأكثرية في مصر وتخرج فقط الأقلية المؤمنة ومن يواليها ويتبعها لسبب أو آخر.

هناك أدلة كثيرة تُثبت أنّ فرعون الخروج هو مرنبتاح بن رمسيس الثاني. ولا مجال هنا لتقديم هذه الأدلة، ولكن من اللافت أنّ **الوثائق الفرعونية تنص على حصول فوضى واضطرابات بعد موت مرنبتاح، بل نجد أنّ السلطة الفرعونية تتهاوى ويسيطر على العرش شخص يوصف بأنّه آسيوي سمّته بعض المصادر** (أرسو). ومن يتدبّر الآيات القرآنية يدرك أنّه بعد غرق فرعون وجنده ورموز سلطته سيطر الشعب الذي ينتمي إلى طوائف شتى، ومنهم شعب بني إسرائيل، على كل ما تركه الفرعون وأركان سلطته. انظر قوله تعالى: " **فأخرجناهم من جنّات وعيون، وكنوز ومقام كريم، كذلك وأورثناها بني إسرائيل، فأتبعوهم مشرقين** " الشعراء:(57-60). فبمجرد خروج الفرعون تمّ الإرث، بدليل استخدام الفاء في قوله تعالى: " **فأتبعوهم مشرقين** ". ولم يكن شعب إسرائيل هو الوارث الوحيد، بل إنّ هناك شعوباً أخرى كانت في الطبقات الأدنى. انظر قوله تعالى: " **كم تركوا من جنّات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونَعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين** " الدّخان:(25-28). ويبدو أنّ بني إسرائيل كانوا في الدائرة الأقرب إلى القصور الفرعونية، بدلالة قوله تعالى في آيات سورة الشعراء:" **وكنوز ومقام كريم** " أمّا الدائرة الأبعد، وهي الأراضي والسهول، فقد وقعت تحت سلطة آخرين، بدليل قوله تعالى:" **وزروع ومقام كريم... وأورثناها قوماً آخرين**" .

أمّا الذين خرجوا مع موسى، عليه السلام، وحكم الله تعالى فيهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، فربما أصبحوا في هذه المدة

بؤرة جذب لبعض من بقي في مصر، ثم أورثهم الله تعالى الأرض المباركة، بدلالة قوله تعالى:" **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها..**" (الأعراف: 137). فالميراث الفوري كان لمن بقي في مصر، أمّا ميراث الأرض المباركة فكان بعد زمن التيه. وعلى هؤلاء من بني إسرائيل نزلت التوراة، أمّا البقيّة، قلّت أم كثرت، فقد اختلطت بالشعوب الأخرى وبالتالي لم تتميّز، لأنها لم تتهوّد .

جاء في الآية **32** من سورة الدخان:"**ولقد اخترناهم على علم على العالمين**". فخروج موسى، عليه السلام، بمن آمن له من بني إسرائيل، وتلقيهم التوراة، كل ذلك كان باختيار ربّاني. وعلى الرغم من مفاسدهم وضلالاتهم وانحرافهم، فقد خرج منهم بعد حين دعاة هداة؛ جاء في الآية **159** من سورة الأعراف:"**ومن قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون**". وجاء في الآية **168**:"**وقطّعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك...**". فاختيارهم، إذن، واختيار الأرض المقدّسة لتكون المحضن والمنطلق، كل ذلك كان على علم وعن حكمة ربّانية؛ انظر ما ورد عن عهد طالوت، ثم انظر ما ورد عن عهد داود وسليمان، عليهما السلام، ثم انظر إلى اختيار الله تعالى لآل عمران، وانظر الأجواء التي عاشتها مريم، عليها السّلام.

صحّ في الحديث الشريف أنّ الله تعالى كان يبعث الرسل إلى أقوامهم خاصّة، حتى جاء زمن الرسالة العامّة المتمثلة في الإسلام.

وخصوصيّة الرسالات السابقة تعني أنها مرحليّة، وهذا ينطبق على التوراة التي كانت خاصّة ببني إسرائيل. من هنا كانت اليهوديّة قاصرة على بني إسرائيل. وقد كان خروج اليهود (بني إسرائيل) عن تعاليم التوراة على صورتين؛ الأولى بالتحريف، والثانية بمقاومة الإصلاح والتصويب الذي كانت تأتي به الرسل والأنبياء. جاء في الآية **78** من سورة المائدة:" **لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**". فاللعن إذن كان للذين كفروا منهم، وهذا يعني أنّ هناك فئة آمنت وصحّحت مسيرتها، وهذا ما كان يحصل في كل مرحلة. وعندما جاء الإسلام وجدنا منهم من يسلم لله تعالى، واستمر ذلك إلى يومنا هذا.

بمرور الزمن، ونتيجة لاستمرار الفرز عبر المراحل المختلفة، ونتيجة لاعتناق أقوام متعددة لليهودية، فقد أصبحت اليهودية ديناً يضم أجناساً مختلفة. من هنا نجد أنّ علماء الأجناس يقولون: إنّ أكثر من **90%** من يهود العالم لا علاقة لهم اليوم ببني إسرائيل، بل إنّ الغالبية العظمى من بني إسرائيل قد اعتنقوا الإسلام، وبالتالي لم يعد بالإمكان تمييزهم عن غيرهم من الأجناس. أمّا الادعاء الصهيوني بأنّ اليهود هم أبناء يعقوب، عليه السلام، فإنه أسطورة سُطّرت لأهداف سياسية، ولا مكان لهذا الادّعاء في الدراسات التاريخية الجادّة. صحيح أنّ اليهودية نزلت إلى بني إسرائيل، وصحيح أيضاً أنّ الغالبية من بني إسرائيل قد صوّبت مسيرتها مع الأنبياء والمرسلين. أمّا الذين بقوا على عنادهم وقاوموا دعوات الإصلاح، وركنوا إلى الأساطير،

وجذبوا إليهم أمثالهم من الأمم الأخرى، فهم الذين أفاض القرآن الكريم في وصفهم، وكشف حقيقتهم، وبيّن خطورة موقفهم من دعوة الحق التي جاءت بها الرسل عليهم السّلام.

وما هو على الغيب بضنين

قال تعالى في حق القرآن الكريم:"..**إنّه لقولُ رسولٍ كريم، ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين، مُطاع ثَمّ أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المُبين، وما هو على الغيب بضنين، وما هو بقول شيطانٍ رجيم...**". التكوير(**19 – 25**)

يذهب أكثر أهل التفسير إلى أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو المقصود بقوله تعالى:" **وما هو على الغيب بضنين**": أي أنّ الرسول، عليه السلام، ليس ببخيل بما جاءه من الوحي، إذ الوحي غيب. ولكن استخدام (**على**) يُضعف هذا القول، لأننا نقول: **بخيلٌ بالمال**، ولا نقول: **بخيلٌ على المال**. وقد لاحظ بعض المفسرين هذا فقالوا: إنّ (**ضنين**) قُرئت أيضاً (**ظنين**) وعليه يصبح المعنى: **ليس محمد بمُتَهم**، فهو إذن أمين على ما جاءه من الغيب.

الذي نراه هنا أنّ الضمير (**هو**) يرجع إلى القرآن الكريم، وليس إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، بدليل قوله تعالى:" **وما هو على الغيب بضنين، وما هو بقول شيطان رجيم...**"، ويؤيّد ذلك ما ورد في الآيات التي تسبق:" **إنه لقول رسول كريم...**". وعليه يكون المعنى: **ليس القرآنُ على الغيب ببخيل**. ولا يصحّ هنا أن نقول إنّ حروف الجر ينوب بعضها عن بعض فيكون المعنى: **ليس القرآن بالغيب ببخيل**، لأنّ القول إنّ (على) هنا بمعنى الباء يجعلنا نتساءل عن

سرّ عدم استخدام **الباء**، في الوقت الذي يؤدي استخدام **على** إلى إشكال في الفهم ؟!

يمكن تقسيم الكون المخلوق إلى عالَمين؛ عالم غيب، وعالَم شهادة، فما جهله الإنسان فهو عالم الغيب، وما علمه فهو عالَم شهادة. ومعلوم أنّ اطّلاع الإنسان على عالم الغيب إمّا أن يكون عن **طريق الحس، أو العقل، أو الخبر الصادق**. والتطور العلمي للإنسان يعني اتساع مساحة عالم الشهادة على حساب مساحة عالم الغيب. وعندما نؤمن بأنّ الله تعالى هو مطلق العلم فإنّ ذلك يعني أنّه لا يوجد في حقه سبحانه غيب، بل كل الوجود عنده شهادة. وعليه فإنّ معنى أنّه تعالى **عالم الغيب والشهادة**: أنه سبحانه عالم لما يشهده الخلق، ولما يغيب عنهم.

وُصِف القرآن الكريم، وكذلك كل الرّسالات الربّانية، بأنّه نور. **والنور كلّ ما يُوصلك إلى حقائق الأشياء**، وينقل هذه الأشياء من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. فالقرآن نور لا يبخل على عَالَم الغيب أن يُجلّيه فيجعله عالم شهادة، فهو يحتوي على العلم الكافي لكي يطل الإنسان على الغيوب، فالغيب محتاج إلى أن تُلقى عليه الأضواء، ليخرج من عالم الجهل إلى عالم العلم. وعليه نُرجّح أن يكون المقصود بقوله تعالى: "**وما هو على الغيب بضنين**"، أنّ القرآن الكريم، بما فيه من علم ومعرفة، لا يَضِنُّ على عالم الغيب أن يُجلّيه ويجعله عالم شهادة.

عندما ينعكس نور القرآن الكريم في عالم الاجتماع، مثلاً، تتجلى حقائق هذا العالم... وهكذا في كل عالم. على ضوء ذلك يمكن أن نفهم، بشكل أفضل، بعض دلالات قوله تعالى في حق القرآن الكريم:" **تِبياناً لكلِّ شيءٍ**"؛ فهو المبين لكل شيء، وما من غيب إلا والقرآن قابل لتبيينه. وعليه ليس بالضرورة أن توجد الأشياء كلّها في القرآن الكريم، ولكنّ نور القرآن الكريم يُجلّي كل الأشياء، أي كلّ الغيوب، فيحيلها إلى شهادة. من هنا ندرك أنّ استخدام حرف (على) في قوله تعالى: "**وما هو على الغيبِ بضنين**" لا يمكن الاستعاضة عنه بحرف الباء، لأنّ الآية لو كانت: (وما هو بالغيب بضنين)، لكان المعنى أنّ الغيوب فيه ثم هي تخرج منه، فتتجلّى في عالم الواقع. وهذا غير مفهوم، بل إنّ الغيوب هي عالم آخر يقوم نور القرآن الكريم بتبيينها وتجليتها.

وخلاصة الأمر أنه بإمكاننا، مستنيرين بالقرآن الكريم، أن نجعل عالم الغيب عالم شهادة، سواء أكان الأمر يتعلق بالماضي، أو بالحاضر، أو بالمستقبل. وسواء أتعلق ذلك بالاجتماع، أو الاقتصاد، أو النفس... وهذا يعني أنّ مِن كَرم القرآن الكريم أنّه لا يَضنُّ على الغيب بنوره المُبين:" **وما هو على الغيب بضنين**".

وعَلّم آدم الأسماء

لمّا كان الأمر يتعلق بأهليّة الخلافة على الأرض، جاءت القدرة على **تعلّم الأسماء** والنطق بها لتحسم المسألة لصالح المخلوق الذي يملك هذه القدرة. وهذا يعني أنّ القدرة اللّغوية هي الركن الأساس في مسألة الخلافة، وبناء الحضارات. ومعلوم أنّ هذه القدرة لها أساس مادّي، يتمثل بالحنجرة واللسان وما يرافقهما. ولها أساس عقلي، ينمو بنمو الإنسان. ولا يزال الأساس العقليّ سراً من الأسرار، مما يجعلهُ محل جدل بين العلماء المختصّين.

البداية تكون بتعليم الأسماء، ويكون ذلك عن طريق الربط بين الصوت والصورة الحسيّة؛ فإذا أردنا أن نُعلّم الطفل كلمة **كأس**، مثلاً، أحضرنا له كأساً، ثم كررنا على مسمعه كلمة **كأس** ونحن نشير إلى الكأس. هنا يقوم الطفلُ بالربط بين الصوت والصورة الحسيّة. فإذا تمّ التّعلم تكوّن لدى الطفل القدرة على لفظ كلمة **كأس**، وذلك عندما يُحسّ أو يتخيّل الكأس. وتكون لديه القدرة على تخيّل الكأس عندما يسمع لفظة كأس؛ فالصورة الحسيّة تستدعي اللفظة، واللفظة تستدعي الصورة،.. وهكذا.

أمّا **تعلّم الحرف والفعل** فهو أكثر تعقيداً، فالحرف (**في**)، مثلاً، يستلزم عناصر عدّة؛ فإذا أردتَ أن تعلّم الطفل أنّ الماء في الكأس فإنّك تحتاج كأساً، ثمّ تُحضر ماءً، وتسكب هذا الماء في الكأس، ثم

تقول للطفل: الماء في الكأس. وكذلك الأمر في الأفعال؛ فلكي يتعلم الطفل معنى كلمة (**ضرب**) لا بدّ أن يكون هناك ضارب ومضروب وأداة ضرب وفعل ضرب، كمقدمات ضروريّة لتفهيم الطفل معنى كلمة **ضرب**.

جاء في الآيات (**31، 32، 33**) من سورة البقرة:" **وعلّم آدم الأسماءَ كلها ثم عرضَهُم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علمَ لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت العليمُ الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيبَ السماواتِ والأرض، وأعلم ما تُبدون وما كنتم تَكتمون**" .

إذا أخذنا بظاهر النص القرآنيّ الكريم يمكن أن نقول إنّ الأسماء، في هذه الحادثة الجليلة، كانت لمُسمّيات عاقلة، وذلك لقوله تعالى في حق هذه المسمّيات:" **عرضهُم.. هؤلاء.. بأسمائهم**". وهذا قد يفسر لنا المقصود بقوله تعالى:"**وعلّم آدم الأسماءَ كلّها**"، أي أنّ آدم، عليه السلام، قد تعلّم **كلّ** أسماء المسميات العاقلة التي ستكون محل امتحان لآدم وللملائكة، عليهم السلام. وقد استطاع آدم، عليه السلام، أن يخبر بجميع أسماء الكائنات العاقلة التي عُرضت في الامتحان، أي أنّه أنجز **100%** .

وهنا قد يثور سؤال: ولكنّ الله تعالى هو الذي علَّم آدم، عليه السلام، فأين الفضل لآدم في ذلك؟!

نقول: المقصود هنـــا قابليّـــة الـــتعلّم والأداء، أي الاســـتعداد الفطري؛ جسديّاً، وعقليّاً، ونفسيّاً. ويبدو أنّ ذلك لا يتوفر للملائكة في أصل فطرتهم: "**سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا**".

نعم، هذا هو الأساس المطلوب للخلافة على الأرض، وهذا هو الاستعداد الفطري الأولي الذي لا بدّ منه، ثم يقوم الإنسان بالإبـــداع؛ فيفرّع، ويولّد، ويستنبط،... بحيث تبقى اللغة لديه مواكبـــة لتطـــوره وحاجاته.

لقد أدرك الإنسان أهمية اللغة، إلى درجـــة أن نجـــد بعـــض الفلسفات المعاصرة تبالغ في القول بأهمية اللغة، فتزعم أن لا تفكيـــر من دون لغة. ويبدو أننا بحاجة إلى دراسات أوفى تعطي اللغة مكانتها في البناء الحضاري الإنساني.

زُيّن للنّاس

جاء في الآية **14** سورة آل عمران: "**زُيِّن للناس حُبّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطير المقنْطرة من الذهبِ والفضّةِ والخيلِ المسوّمة والأنعام والحرث، ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا، والله عندهُ حسن المآب**".

الزّينُ: هو شدة الحسن، والتزيين هو جعل الشيء زيناً. والكلام في الآية الكريمة يتعلق بما فُطر عليه الإنسان من حب الأمور المذكورة، ولذلك حكمة تتعلق بالحياة الدنيا، وبضرورات إعمار الكون، بل إنّ هذا التزيين هو من أهم أسس التحضر الإنساني. وعليه بعيدٌ ما يقوله بعض أهل التفسير من أنّ المُزيِّن هو الشيطان، بل هي الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، وهذا ما نجده في كل النفوس، وإن تفاوتت في الإيمان والتقوى. ولا يُذم الإنسان في حبه وميله إلى هذه المذكورات، ولكن تأتي المذمة عندما يبالغ الإنسان في اندفاعه، فيخرج عن الطور، ويقوده ذلك إلى الاعتداء وتجاوز حدود الله تعالى.

عندما يتزيّن الإنسان بزينة ما فإنما يقصد أن يظهر بمظهر هو أحسن من واقعه. والزينة تُوجِد فرقا بين الحقيقة والواقع الجديد، **وكلما اتسعت الفجوة كانت الزينة أشد**. وعليه فإن الزينة في الأمور التي ذكرتها الآية الكريمة تتفاوت؛ فتزيين النساء هو أشد من تزيين

البنين، وتزيين البنين أشدّ من تزيين الذهب والفضة... وهكذا. أي أنّ الآية الكريمة قد سردت المذكورات تنازلياً. وعندما نقول إنّ تزيين النساء هو الأشدّ بين المذكورات فإنما نقصد أن نقول إنّ الفارق بين واقع النساء وحقيقتهن، وبين صورتهن في عيون الرجال ونفوسهم هو فارق كبير. وعليه تكون الزينة أشدّ ما تكون في النساء إذا نظرنا إليهنّ بعيون الرجال. أما إذا نظرنا إلى المرأة بعين المرأة فإننا نكون عندها أقرب إلى الواقع، وبالتالي تكون الزينة أقل.

زينة المرأة في عين الرجل أشدّ من زينة الرجل في عين المرأة. وعليه فإنّ الفارق بين حقيقة الرجل في الواقع وصورتهِ في عين المرأة أقل من حقيقة المرأة في الواقع وصورتها في عين الرجل. هذا يعني أنّ خيبة أمل الزوجة بعد الزواج أقل من خيبة أمل الزوج، وذلك في حالة تحييد العوامل الأخرى؛ فالرجل حسّي في نظرته إلى المرأة، وعلى وجه الخصوص عندما يتعلق الأمر بالعين والإبصار. من هنا لا بد أن تعي المرأة أنها تصبح بحاجة أشدّ إلى الزينة عندما تصبح زوجة. وهذا لا يعني أنّ الرجل لا يحتاج إلى الزينة، ولكننا نقارن بين فطرتين. وقد نصت الآية الكريمة، كما نلاحظ، على تزيين النساء في نفوس الرجال، ولم تنص على تزيين الرجال في عيون النساء، لأنّ الكلام هنا عن التزيين الأشدّ.

لقد نصّت الآية الكريمة على البنين دون البنات، لأنّ التزيين الفطري في البنين أشدّ منه في البنات، أي أنّ الفارق بين واقع البنين الحقيقي وبين موقعهم في نفوس الآباء والأمهات، هو أكبر من واقع

البنات الحقيقي وموقعهن في نفوس الآباء والأمهات. انظر إلى تفاني الآباء والأمهات، ثم انظر إلى موقف الأبناء من الآباء والأمهات، وعلى وجه الخصوص عند الكبر. من هنا كان لا بد من التشديد في الوصية: "...**إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**" (الإسراء:23،24).

على الآباء والأمهات إذن أن يدركوا أنّ ذلك حقيقة من حقائق الحياة، وفطرة فطر الله الناس عليها؛ فالدافع الذي يدفع الأب والأم إلى التفاني في رعاية الولد لا توجد قوته عند الولد. هذا لا يعني أنّ الولد لا يتفانى في رعاية الوالدين، ولكنّ دوافع وقوة ذلك تختلف. بل إنّ هذا التفاني المتبادل هو من الأمور التي تميز الإنسان عن باقي الكائنات الحية؛ فأنت تجد القطة، مثلاً، تدافع بشراسة عن صغارها، ولكنّ هذا الصغير عندما يكبر لا يأبه بالأم، بل قد يعتدي عليها.

أما فيما يتعلّق بالذهب والفضة والنقود، فإن الفارق أقل بين واقعها النفعي وموقعها من نفس الإنسان؛ أي أنّ الزينة فيها أقل من زينة النساء والبنين، بمعنى أنّ حبّ الإنسان لها هو قريب إلى واقعها من حيث منفعتها وخدمتها له. وتكون الزينة أقل ما تكون في عالم النبات والزراعة؛ فدرجة حبنا وانشدادنا إلى هذا العالم قريب جدّاً إلى واقعه المنفعي.

فهل من مدّكر

جاء في الآيتين (**137، 138**) من سورة الصافات، وذلك تعقيباً على قصّة إهلاك قوم لوط:"**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**". معلوم أنّ المرور في وضح النهار أدعى إلى الاعتبار، ومعلوم أنّ المرور بالليل لا يسمح بالنظر والتأمل، فما السّر إذن في تخصيص الليل والصباح؟ اللافت للنظر هنا أنّ الآية تختتم بقوله تعالى:" **أَفَلا تَعْقِلُونَ**" ولم تختتم:" **أَفَلا تُبْصِرُونَ**". وهذا يعني أنّه إذا استخدم العقل أمكن أن يتوصل الناس إلى أسرار هذا الإهلاك وما فيه من آيات لأهل التفرّس الباحثين عن سمات الأشياء وخصائصها: " **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**" (الحجر: 75)

جاء في الآية **76** من سورة الحجر، عند الحديث عن مدائن قوم لوط:" **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ**". فهي إذن تقع في طريقٍ ثابت لم يندرس، وهو طريق مطروق يعرفه العرب في زمن الرسالة. ومعلوم أنّ أكثر الروايات التاريخية تشير إلى سدوم التي تقع في فلسطين، جنوب البحر الميت. ويبدو أنها كانت تقع في طريق القوافل المسافرة من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. والذي يزور تلك المنطقة يلاحظ تضاريس غريبة توحي بإمكانية حصول قلبٍ للأرض، كما جاء في القرآن الكريم:" **فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...**" (الحجر:74)

جاء في الآية 37 من سورة القمر في حق قوم لوط:"**وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ..**" إذن حصل إذهاب للأبصار، وهذا يجعلنا نفهم، بشكل أفضل، الوصية التي أوصت بها الملائكة لوطاً، عليه السلام:".. **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ...**" (هود:81) فالالتفات قد يذهب بالبصر. أمّا زوجة لوط فسوف تلتفت:" **إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُم...**" وقد كانت هذه الوصية مشددة، بحيث لا بد أن يسير لوط، عليه السلام، خلف أهل بيته حتى يطمئن إلى التزامهم: " **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَد..**" (الحجر:65). وحتى لا يكون ذهابهم إلى الجهة غير الصحيحة جاء في تتمة الآية:" **وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ**"، إذ يبدو أنّ العذاب كان يتعلق **بإشعاعات تذهب بالأبصار**، ومن هنا لا يجوز الالتفات، ولا بد من الذهاب سريعاً، وقبل طلوع الفجر، خلف المناطق الجبلية، بحيث تصبح الجبال حاجزاً يمنع من وصول هذه الإشعاعات في حالة التفات البعض خطأ.

جاء في الآية 81 من سورة هود:" **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ**". فالصُّبح هو موعد نزول العذاب بقوم لوط، أمّا شروق الشمس فسيكون موعد قلب المدينة ودفنها بمن فيها:" **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِين، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...**"(الحجر:73،74) يبدو أنّ من حِكَم هذا القلب دفن وطمر تلك المواد المشعّة التي تشكل خطراً على الناس الذين يمرّون بالمنطقة. ويمكن التدليل على ذلك بقوله تعالى في الآية 38 من سورة القمر:" **وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ**". فهو إذن

عذاب له استقرار في الأرض واستمرار، بل لقد بقيت العلامات الواضحة ذات الدلالات البينة:" **وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**"(العنكبوت35) فاستخدام العقل ومعطيات العلم يمكن أن يقودنا، على ضوء الآيات القرآنية الكريمة، إلى التوصل إلى تلك التفاصيل التي جاءت بها الآيات القرآنية، ليكون ذلك إعجازاً تاريخياً.

من أراد أن يبحث عن تلك المواد **المشعة المدفونة**، فعليه أن يستخدم أجهزة القياس بالليل، أو في الصباح قبل شروق الشمس، لأنّ الشروق قد يجعل أشعة الشمس تطغى على تلك الأشعة محتملة الوجود. وقد يلزم الحذر بالليل وعند الصباح، لأنّ فعالية ذلك الأمر المجهول كانت أصلاً في الصباح قبل طلوع الشمس:"**وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ**". معلوم أنه في الصباح قبل طلوع الشمس تكون حدقة العين متسعة تسمح بدخول كمية أكبر من الأشعة. واللافت للنظر أنّ القرآن الكريم نصّ على أنّ قوم لوط قد أمطروا بحجارة من **طين**، ثم نصّ على أنّ هذه الحجارة هي من **سجيل**، وأنّ هذا السّجيل **منضود**، ثم إنّ هذه الحجارة **معالجة** لعقاب أمثال أولئك الذين أسرفوا في المعاصي.

ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّ **سجيل** تعني الطين المتحجّر، وجعلوا ذلك من تفسير القرآن بالقرآن. والذي نراه أنّ هذا قد يكون غير صحيح، لأنّ كل آية تلقي ضوءاً على معنى جديد. ولا يبعد أن يكون الكلام هنا عن مواد صلبة ذات إشعاع مستمر مسترسل، وذات إدرارٍ لا يتوقّف؛ لأنّ من معاني **السّجل** في اللغة العربية **الإرسال**

وكذلك **العطاء**، بل إنّ بعض أهل الاختصاص قالوا إنه مثل الشيء الرَّسِل، أو مثل العطية في الإدرار. وهذه المواد الصلبة المشعة قد تكون مغلفة بطين عند سقوطها من السماء، ثم هي مكونة وفق نظام يحقق فعاليتها بدليل قوله تعالى:"**سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ**"، ثم هي معالجة لتُحقّق الأهداف:"**مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ**".

جاء في الآية **83** من سورة الأعراف:" **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**". تكررت كلمة (**الغابرين**) في القرآن الكريم سبع مرّات، وذلك عند الحديث عن امرأة لوط، التي هلكت مع من هلك. وكلمة **غَبَر** هي من الأضداد؛ فهي تعني **ذَهَبَ**، وتعني أيضاً **بَقِي**، وهي هنا بمعنى **بَقِي**. ويمكن أن يشير ذلك إلى حقيقة بقاء قوم لوط في صيغة مستحثّات في باطن الأرض. نعم إنها إشارات نرى أنها تستفز أهل الاختصاص من أصحاب العقول. وقد يحسن أن نختم بما خُتمت به قصة قوم لوط في سورة القمر:" **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟!**".

يأجوج ومأجوج

جـــاء في الآية 13 من سورة الحجرات:"..**وَجَعَلْنَـــاكُمْ شُـــعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...**". وهذا يعني أنّ انقسام البشر إلى قبائل وشـــعوب وأمم هو أمر صحّي وإيجابي، بغض النظر عن العوارض السلبية لهذا الانقسام. والذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى ماضي البشرية الذي ساعد على تشكّل الشعوب والأمم، إلـــى درجـــة أن نجـــد اليـــوم الأســـود والأبيض، والأصفر وغيره، بحيث يسهل التمييز، لاختلاف الأشـــكال والألوان والصور واللغات. ويبدو أنّ الانعدام النسبي لوسائل الاتصال في القديم ساعد على عزل الناس بعضهم عن بعض، وبالتالي ســـاعد على تشكّل الخواص المميزة للأمم والشعوب. وهذا يعني أننا نـــسير اليوم في الاتجاه المعاكس، نظراً لتطور وسائل الاتـــصال، وســـقوط الحواجز بين البشر شيئاً فشيئاً.

يتحدث القرآن الكريم، في خواتيم سورة الكهف، عن قصة ذي القرنين، الحاكم القوي التقي العادل، الذي يجوب الأرض حاملاً رسالة الخير إلى الناس، فهو على خلاف ما عهدته البشرية من حكم الجبابرة والمتسلطين. ويجدر أن نلفت الانتباه هنا إلى أننـــا لا نقـــصد بـــذي القرنين الإسكندر المقدوني، بل هو عبد صالح تضاربت الأقوال فـــي اسمه وزمانه، ويرجّح البعض أنه كورش الفارسي. وما يهمنا هنا أن نلفت الانتباه إلى ما قام به من بناء عظيم يفصل بين أُمّتين، ويكـــون بذلك قد ساعد الأمّة الضعيفة على النمو بعيداً عن إفساد أمّة يـــأجوج

وأمّة مأجوج. وبهذا العمل يكون قد ساعد، **عن طريق العـزل**، علـى تشكل وتبلور شخصية أكثر من أمّة. واعتبر ذلك في حينـه رحمـة؛ جاء في الآية **98** من سورة الكهف:"**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي**". ولكـن مشيئة الله وحكمته أن لا يدوم هذا العزل:" **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَـهُ دَكَّاءَ، وكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً** ".

عندما يأتي وعد الله باندكاك السدّ الحاجز تُترك الأمم ليخـتلط بعضها في بعض، جاء في الآية **99** سورة الكهف:"**وَتَرَكْنَـا بَعْـضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**..."، أي يُترك الناس في زمن معـين ليخـتلط بعضهم في بعض، في صيغة موجات، أي يتمّ التداخل بـين الأمـم، ولكن بعد أن يكون لكل أمّة شخصيتها المتميزة، أي مع احتفاظ كـل أمّة بأسس شخصيتها التي تميّزها عن غيرها؛ **فالتنوّع في الأمم هـو من أسرار التحضّر البشري، وهو من أسس اللقاء بين الناس.**

في البداية كان الناس أمّة واحدة، ثم كان الانفصال والانعـزال والاختلاف، فتبلورت شخصيات الأمم، ثم عاد الناس إلـى الاخـتلاط والتعارف، وسقطت الحواجز، ويبدو أنّ هذا الاتجاه سيستمر إلى يوم القيامة، حيث جاء في الآية **99** من سورة الكهف "..**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً**"، ويبدو أنّ المقصود هنا مجموع البشر. وعلى ضوء ذلك يمكن تلخيص تاريخ البشرية في مراحل ثلاث:

أ. مرحلة الأمّة الواحدة، وهذا في فجر البشرية.

ب. مرحلة الاختلاف والتفرق والانعزال وتبلور شخصيّات الأمم.

ج. مرحلة العالميّة، والتي تعني سقوط الحـــواجز، والتقـــاء الأمـــم. وتستمر هذه المرحلة، على ما يبدو، إلى بدايات مرحلة التمهيد لعـــالم الآخرة .

يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:"**وكان كل رسول يبعـــث إلى قومه خاصّة، وبعثتُ إلى الناس عامّة** "، فالمرحلة الأولى والثانية تقتضيان أن يكون لكل أمّة رسول، **أمّا المرحلة الثالثة فاقتـــضت أن تكون الرسالة العالميّة العامّة، وذلك ببعثة الرسول، صلى الله عليـــه وسلم، ونزول الرسالة الإسلاميّة**، التي تستمر إلى قُبيل نهاية التاريخ البشري على الأرض. ثم تظهر العلامات الكبرى لبداية النهاية وقيـــام الساعة. ومن هذه العلامات انفتاح وانتشار شرور يأجوج ومـــأجوج، وذلك في صورة زحف يتجه من الشرق إلى الغـــرب حتـــى يـــصل فلسطين، الأرض المقدسة، والتي شاء الله تعالى أن تتطهر، بين الحين والآخر، مما بلابسها من دنس وشر، فلا يُعمَّر فيها ظالم.

جاء في الآية **96** من سورة الأنبياء:"**حتى إذا فُتِحَـــت يـــأجوج ومأجوج...**"، كلمة **فُتحت** لا تحتمل لغة أن يكون ما سيفتح هو الـــسدّ، كما توهّم الكثير من أهل التفسير محكّمين فهمهم في حقيقـــة اللغـــة. وكان أسلم لو قالوا إنّ قبائل يأجوج ومأجوج تنفتح بالشر. مع ملاحظة أنّ السدّ لم يرد ذكرهُ في السياق.

هناك احتمال أن يكون زمان ذي القرنين مُغرقاً فـــي القِـــدم. ويبدو أنّ مهمّتهُ كانت تتعلق بدفع تطور الأمم المختلفة، والتي هي في مرحلة التبلور، وليس هناك ما يدل على اقتصار مهمّتهُ علـــى الأمـــم

الثلاث التي أشير إليها في سورة الكهف. ويتّضح لمن يتدبر الآيات الكريمة أنّ كل أمّة من هذه الأمم كانت تختلف عن الأخرى؛ فالأولى بلغت من النضوج مبلغاً يجعلها مؤاخذة بأعمالها، والثالثة لا تكاد تفقه قولا، وهي مستضعفة ومعتدى عليها من قبل أُمّتين أصلهما واحد، بدلالة تقارب الاسمين، (يأجوج ومأجوج)، وبدلالة تحالفهما في العدوان على هذه الأمّة الضعيفة. إنّها أمّة تحسُّ بضرورة وجود حاجز يحفظها من عدوان الأقوياء، ويتيح لها أن تبلور شخصيتها بعيداً عن الآخرين. جاء في الآية **94** من سورة الكهف:"**قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوجَ ومأجوجَ مفسدونَ في الأرض، فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أنْ تجعلَ بيننا وبينهم سدّاً**".

قام ذو القرنين بإيجاد الحل الناجح والناجع، والمحقق لبعض أهداف تجوالهِ وجَوبِه في الأرض؛ فهذا الحل يعزل الأمم عن بعضها فيُتيح تبلور شخصيّاتها في تلك المرحلة، التي سيليها مرحلة اختلاط الأمم. وهذا في حينه رحمة من الله تعالى بالناس:"**قال هذا رحمةٌ من ربيّ...**"، وفي الوقت الذي يفقد فيه الردم الحاجز وظيفته لا بدّ أن يزول:"..**فإذا جاء وعد ربّي جعلهُ دكاءَ..**"، وهذا لا بدّ أن يحصل، لأنّهُ تقدير ربّ الناس ومربّيهم:"..**وكان وعد ربّي حقّاً**"، وسيكون هذا الاندكاك متزامناً مع بدايات المرحلة الأخيرة، والتي هي مرحلة اختلاط الأمم وموج بعضها في بعض، كما ألمحنا.

جاء في الحديث الشريف أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، استيقظ من نومهِ فزعاً وقال:" **ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب؛ فتح**

اليوم من ردم يأجوج..."، وهذا يشير إلى تزامن بدايات انهيار السدّ مع بداية مرحلة العالميّة واختلاط الأمم، والتي جاء الإسلام ليحققها. ولا شك أنّ كلمة (يختلط) لا تفي هنا بالغرض، بل (يموج)، لأنّ الاختلاط لا يدل على الكثرة الهائلة، ولا يشير إلى التداخل مع الاحتفاظ بالخصائص المُميّزة، وكل ذلك بعض إيحاءات كلمة **يموج**. أما كلمة (تركنا)، في قوله تعالى:" **وتركنا بعضهم يومئذٍ يموجُ في بعض...**"، فتوحي **بالمنع** السابق.

تستمر مرحلة موج الأمم في بعضها إلى يوم القيامة:" وتركنا بعضهم يومئذٍ يموجُ في بعض، **ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً**"، ولكنّ هذا الموج لا يذهب بخصوصيّات الأمم وتميّزها، بدليل أنّ يأجوج ومأجوج الذين أفسدوا في مرحلة تبلور خصوصيّات الأمم سيعاودون الكرّة فيكون إفسادهم من العلامات الكبرى لقيام الساعة. وبدليل وجود العرب الذين يصيبهم البلاء الشديد عند خروج يأجوج ومأجوج كما جاء في الحديث الشريف. وفي الوقت الذي تقترب فيه وظيفة الدين الدنيويّة من نهايتها تقترب نهاية وظيفة العرب أيضاً.

خلاصة الأمر أنّ الأمم التي تبلورت قديماً ستبقى متميّزة، على الرغم من اتجاه البشرية نحو العولمة، فاختلاط الناس إلى يوم القيامة لن يذهب بالأسس المميزة لشخصيّات الأمم العريقة. وسيبقى التميّز والتنوّع من أهم أسس التحضّر البشري. وستبقى الأمم هي المحضن الذي يُلهم قيم الانتماء، ويؤسس في النفوس معاني الالتزام. وستخفق

كل مخططات الشر التي تريد أن تجعل من العولمة وسيلة لإفساد الناس، ومسوغاً للاعتداء على خصوصيّات الأمم، من أجل تحويل البشريّة إلى قطعان يسهل السيطرة عليها واستغلالها. وصدق الله العظيم:"..**إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً**".

وكيف تصبر؟!

هل يُضير الرسول أو ينقص من قدره أن يكون تابعاً في طلب العلم؟! هذا موسى، عليه السلام، يسعى إلى العبد الصالح يطلب عنده المعرفة: "**قال له موسى هل أتبعك على أنْ تعلمن مما عُلمتَ رُشداً**" (الكهف:66) ولكنّ العبد الصالح يعلم أنّ ما لديه من علم ربّاني تقصر عنه الحكمة البشريّة، فيقول لموسى، عليه السلام:".. **إنّك لن تستطيعَ مَعِيَ صبراً، وكيف تصبرُ على ما لم تُحط به خُبراً** "، إذن ليس من السّهل أن يَصبر موسى، عليه السلام، لأنّه لم يدرك مرامي أفعال العبد الصالح، بل إنّ صبره عندها سيكون عجيباً:" **وكيف تصبر؟!**" وهذا ما حصل فعلاً، فقد بادر، عليه السلام، بالاعتراض، وتكرر منه ذلك حتى بعد أن تمّ تذكيرهُ أكثر من مرّة: "قال ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً".

ليس من السهل إذن أن يصبر الإنسان حتى يدرك الحكمة. ويكون كمال الصبر عندما يتحقق كمال الإحاطة، والذي لن يكون في عالم القصور البشري. من هنا يكون النجاح للعقائد والأفكار التي تقدّم المعرفة والبرهان، ويكون النجاح للمربي الذي يغرس في العقول والقلوب القناعات الأقرب إلى الحقيقة، ويكون النجاح للقائد الذي نؤمن به قائداً في عالم الفكرة، فنخلص له بمقدار ما يخلص هو للحقيقة.

هذا إبراهيم، عليه السلام، يدعو ربه:"..**ربّ أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن ؟! قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي..**" (البقرة:260) وهذا موسى، عليه السلام، يرجو ربه:"**ربّ أرني أنظر إليك**" ولكن أنّى لبشر أن يطيق ذلك في قانون الدنيا. ومن هنا لا بد من تقريب هذه الحقيقة إلى موسى، عليه السّلام، ليقتنع ويطمئنّ قلبه: "..**قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني**" (الأعراف: 143)، فالاستسلام الحقيقي هو استسلام العارفين، والانقياد الجوهري هو انقياد المقتنعين، ولا فلاح لمنهج ولا فكرة لا تقيم بناءها على أساس من المعرفة والاقتناع. ونحن هنا نهدف إلى لفت الانتباه إلى حاجة الناس إلى البرهان، وحاجتهم إلى معرفة الحكمة من وراء التشريع، حتى في الشعائر التعبديّة. أمّا قول العلماء إنّ العبادات لا تعلل، فإنها قضية أخرى لا علاقة لها بالحكمة. وحتى عندما يعجز العقل البشري عن إدراك الحكمة فإنّه بالإمكان تقديم الدليل على هذا العجز، وعندها تتحقق القناعة المطلوبة، كما حصل عندما طلب موسى، عليه السلام، أن يرى الله تعالى .

حتى أولئك الذين يستسلمون بمجرد التحقق من الدليل الشرعي، المستند إلى القرآن الكريم والسنّة المشرّفة، نجد أنّ استسلامهم يقوم على أساس من القناعة التي نسميها إيماناً، ولكنّ هذا الاستسلام تشوبه شوائب الحيرة والتساؤل عندما يتعارض ظاهر الأمر مع أساسيّات الدين، كما حصل في قصة موسى، والعبد الصالح؛ حيث لم يصبر موسى، عليه السّلام، واستنكر قتل الصبي، وخرق السفينة، لأنّ ظاهر

هذه الأفعال يتناقض مع الإصلاح الذي أمر به الدين. إنّ ما فعله العبد الصالح كان بوحي ربانيّ، لذلك قال:" **وما فعلتُه عــن أمــري**". ولا ننسى أنّ اتّباع موسى، عليه السلام، للعبد الصالح ابتداءً كان بــوحي ربّاني .

إذا كنّا بحاجة دائمة إلى استجلاء الحكمــة مــن وراء الــنص الديني، وإذا كان استسلامنا لله الخالق لا يعني استسلامنا لكل ظواهر النصوص، وإذا كانت الملائكة قد تساءلت عن الحكمة:" **أتجعلُ فيهــا من يفسدُ فيها ويسفك الدماء**"، فماذا يمكن أن نقول في أولئك الــذين يريدون أن يجعلوا من الشعوب أغنامــاً تُقــاد، ومــاذا نقــول فــي الديكتاتوريّات التي ابتليت بها الأمّة فكانت صوراً مكــررة لفرعــون وهو يقول:" **ما أريكم إلا ما أرى**"؟!

لأَقتُلنّك

جاء في الآية 27 من سورة المائدة:"**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**".

لم يبق الأمر في دائرة التهديد، بل تعدّى ليصل بابن آدم الأول إلى أن يقتل أخاه، وذلك حسداً له أن اختاره الله تعالى وتقبّل منه!! ومن قبل هذا الحادث وجدنا إبليس يعصي أمر ربّه، فقد عَظُم عنده أن يختار الله آدم ونسله للخلافة، فالسجود لآدم، عليه السلام، يعني الاعتراف والإقرار والقبول بتأخُّر عالم الجن لصالح تقدم البشر ممثلين بآدم، عليه السّلام. وقد كشفت هذه الحادثة عن مرض الكِبر المتمكن من نفس إبليس. ومعلوم أنّ إبليس لا ينفرد بهذه النقيصة، بل إنّ الكِبر هو الدافع الأقوى في صد الناس عن طريق الحق والحقيقة.

اختار الله تعالى إبراهيم، عليه السلام، واصطفاه، ثم اصطفى من نسله إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، واصطفى من نسل إسحاق يعقوب، عليه السلام، الذي انتظر بلهفة أن يصطفي الله من نسله أحد أبنائه، إلى أن جاءه يوسف، عليه السلام، يقول :" **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** "، فأدرك يعقوب، عليه السلام، أنّ الله تعالى قد اختار يوسف على سائر إخوته، فحرص على كتمان الأمر، لاحتمال أن يؤدي ذلك

إلى حسد وتباغض، فقال:"**قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**"، فاختيار يوسف الصغير على باقي إخوته مظنّة الحسد لدى بعضهم، وعلى وجه الخصوص الكبار منهم، والذين يتوقون أن يختار الله تعالى أحدهم. ولا ننسى أنّ الروايات تذكر أنّ يوسف، عليه السلام، كان أخاهم لأبيهم، أمّا هم فيغلب أن يكونوا أشقّاء.

انتظر اليهود طويلاً بعد موسى، عليه السلام، آملين أن تكون الرسالة الخاتمة فيهم، وأن يكون الرسول الخاتم منهم. فلمّا بُعث عليه السلام في العرب، دفعهم الحسد والكِبر إلى الصدّ والتكذيب، بل إنّ الاعتقاد اليهودي بعقيدة الشعب المختار دفعهم إلى أن يكونوا الأشد عداوة للرسالة الإسلامية، وهم في ذلك يماثلون إبليس في موقفه من آدم، عليه السلام، وفي عداوته للبشر. ويبقى الكِبر هو الدافع الرئيس لكبار المعاندين، وأكابر المجرمين، أمّا أصحاب النفوس الزكية من أهل التواضع فيَعجَبون من مواقف أهل الكِبر، ولا يزالون حائرين، لا تطيق أفهامُهم مسلك أهل الحسد.

واليوم يَعجبُ المسلمون من الموقف الغربي من الإسلام، فقد خُدِعوا طويلاً بشعارات الحرية والمساواة وحقوق الإنسان، ثم هم اليوم يقفون أمام الحقيقة؛ فحرية الاعتقاد يقصد بها إذن حرية الإلحاد، فهم يفضلونك علمانياً أو حتى ماركسياً، أمّا أن تكون مسلماً فهذا غاية الاستفزاز. لماذا ؟! نقول : لقد بات معروفاً أنّ علاقة المسلم بدينه تُميّزهُ عن سائر الناس؛ فنظرته للدين تختلف، وتصديقه يختلف، ويقينه

يختلف، بل لقد بلغ هذا اليقين درجة جعلته يعتقد جازماً أن لا حقيقة غير الإسلام، لذا فهو وحده المتهم بأنّه يدّعي ملكية الحقيقة، وهذا لأنّ سلوكه تجاه دينه، وتجاه الآخرين يُصرّح بذلك، وهو لا يرى وجود أكثر من دين حق. إنّه الوحيد الذي لا يهمه إن وصَفَته الأديان الأخرى بأنّه كافر، فهو لا يأبه بذلك، لأنه لا يشك لحظة أنّه على الحق. وهو الذي يطلب منه الآخرون أن لا يصفهم بالكفار، ثمّ هم يحاورونهُ من أجل أن يؤخذ منه التصريح والاعتراف. وهو وحده الذي يرى أنّ الإيمان يكون بالعقل والقلب، ومن هنا لا بد من الدليل. إنّه الوحيد الذي يعتقد جازماً بوراثته للدين الحق، وبأحقيّته بالقيادة الدينية. **كل ذلك لأنّه يملك الدليل والبرهان.**

بعد كل ما قلناه، كيف لا يُستفزّ الغربي من الإسلام ومن الصحوة الإسلامية؛ فالغرب يرى نفسه الأول في هذا العالم، ويرى أنّه الملهم للبشرية، والوصي على الإنسانية، وتراه يشمخ عندما يرى الناس يتهافتون على صناعته، ويتلقفون إنتاجه. ولكن عندما يصل الأمر إلى عقيدته وثقافته، تستفزه نظرة المسلم الفوقيّة، والتي تُشعره بتهافت تلك العقيدة وسخافتها. نعم، إنّه الدافع الذي دفع ابن آدم الأول أن يقول لأخيه:"**لأقتُلنّك**".

ثمّ ادعُهنّ

جاء في الآية 260 من سورة البقرة:" **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...**"، واضح في السياق أنّ إبراهيم، عليه السّلام، يطلب أن يرى كيفيّة إحياء الموتى. فهو إذن يؤمن بأنّ الله تعالى يحيي الموتى، ولكنّ نفسه، عليه السلام، تتوق إلى معرفة كيفيّة هذا الإحياء. ولكن أنّى لبشر أن يرى الكيفيّة في جوهرها. وحتى لو دبّت الحياة في ميّت والناس ينظرون، أو اجتمعت الأجزاء المتفرقة وهم يبصرون، فهل يعني ذلك أنهم قد عرفوا كيفيّة إحياء الموتى؟! إنّ جوهر الكيفيّة هو من الأسرار التي تزال تحيّر العقول، ولا تدركها الأبصار. وعليه كيف يمكن أن نُقرّب مثل هذه الحقيقة إلى الأفهام؟!

لقد جاء الرّد في الآية نفسها من سورة البقرة:".. **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً...**" قال بعض أهل التفسير إنّ معنى كلمة **فَصُرهُنّ** أي قطّعهنّ، وهذا عجيب، لأنّ الصّر فيه معنى الضّم، والتقطيع فيه تفريق. ويبدو أنّ الذي حملهم على هذا قوله تعالى:" **ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً** "، ومعلوم أنّ الواحد هو جزء من الأربعة، والأربعة الطيور يمكن أن تكون أربعة أنواع يكون مجموعها أكثر من أربعة، وقد ورد في سورة الحِجر:"**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ**

أَجْمَعِينَ، لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ "، فهل المقصود **بالجزء** هنا بعض إنسان أم عدد من النّاس؟! وعليه فلا داعي لأن تُصرف لفظة **فصرهنّ** عن ظاهر معناها الذي هو الضّم والتقريب.

" **ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً**"، لو كان المقصود تفريق قطع الطيور الميتة على الجبال، كما يقول البعض من أهل التفسير، لكان هذا من أعجب العجب، لأنّ المطلوب هو رؤية كيفيّة الإحياء وتجميع الأشلاء، ويكفي، لتحقيق المطلوب، طير واحد، ولا بد أن يكون قريباً وتحت النّظر. أمّا تفريق الأبعاض على الجبال فلا يجعلنا نبصر كيفيّة الإحياء. وما يُدرينا عندها أنّها الطيور نفسها التي قُطّعت؟! وحتى لا نقع في مثل هذه التناقضات لا بُدّ أن نأخذ المعاني وفق الدلالات الظاهرة.

لقد طُلب من إبراهيم، عليه السلام، أن يأخذ أربعة من الطير، أو من أنواعها، ثم **يضمّها إليه حتى تألفه**، وبعد أن تتحقق الألفة المطلوبة يفرقها في رؤوس الجبال، التي لا ندري عددها ولا ندري مدى بعدها وقربها، وبعد تفريقها يقف ويدعوها إليه، وسيجد أنها تأتيه طائعة مسرعة. وهذه صورة أصبحت اليوم مألوفة ومتكررة، وعلى وجه الخصوص لدى أهل الخليج الذين يُعَلّمون الصقور كيف تطير في جو السماء ثم تعود مسرعة عندما تُدعى وتنادى باللغة التي ألفتها واعتادتها.

معلوم أنّ الطيور هي الأشد نفوراً بين الكائنات التي تعايش الإنسان في الأرض، بل لقد عَدّ بعضهم اقتراب الطير من إنسان بعينه نوعاً من الكرامات. إلا أنّ هذه الفطرة في الطير يمكن أن تتغيّر بالألفة. وبهذا ينكشف لنا بعض أسرار استغراب الناس إحياء الموتى؛ فهم يعجبون من غير المألوف، ولا يعجبون من المألوف، على الرغم من أنّ الإعجاز في الخلق يتجلى في كل مظاهر الكون. فلماذا لا يعجب الناس، مثلاً، من تكوّن الجنين، ونزوله طفلاً كاملاً؟! **إنها الألفة**. ولو كان الموتى يعودون إلى الحياة لأصبح ذلك واقعاً مألوفاً لا يدعو إلى العجب. وإذا كان واقع الطير أنه شديد النفور، فقد أمكن تغيير هذا الواقع، وأصبح الأمر في دائرة الممكن غير المستغرب. إنّ في الموت تحللاً وتفرّقاً، أمّا الحياة فتآلف واجتماع. وليس هذا في الكائنات الحيّة فقط، بل نجده في الاجتماع البشري؛ فتحلل المجتمع وتفرّق النّاس نذير موت لهذا المجتمع، أمّا التآلف والاجتماع فمن أبرز مظاهر الحياة فيه.

جاء في الآية **16** من سورة ق:" **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**"، وجاء في الآية **25** من سورة الروم:".. **ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ**". لقد طُلب من إبراهيم، عليه السلام، أن يُقرّب الطيور وأن يضمها إليه، وبعد أن تحصل الألفة تكون الدعوة فيكون الاجتماع:" **ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً** ". وهذا سرٌّ آخر؛ **فالقرب الشديد الذي ينتج عنه**

تآلف يجعل من السهل العودة بعد التفرّق، فكيف بالله القدير الذي هو أقرب إلينا من حبل الوريد!!

إنّ الموت تفرق وتنافر على مستوى الجسد المادّي، وعلى مستوى علاقة الروح بهذا الجسد. أمّا الحياة فإنها تآلف وانجذاب على مستوى الجسد ومكوناته، وعلى مستوى علاقة الروح بهذا الجسد المتآلف، وكلما ازداد القرب ازداد الانجذاب، وكلما ازداد الانجذاب ازداد القرب، وعندما يكون هناك تآلف في عالم المعنى لا يضر البعد في عالم المادّة.

إن لبثتم إلا عشراً

جاء في الآية **52** من سورة الإسراء:"**يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنّون إن لبثتم إلا قليلاً** "، وجاء في الآية **112** و **113** من سورة المؤمنون:" **قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم...**"، وجاء في الآية **45** من سورة يونس:"**ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم**". هذه الآيات وغيرها تكشف عن حقيقة الشعور الإنساني يوم القيامة بسرعة انقضاء الحياة الدنيا، وسرعة مضي عالم البرزخ، فالذاكرة البشرية يومها تكون مشغولة بما هو أهم وبما هو أخطر، ثم إنّ مدّة الدنيا وعالم البرزخ في قانون الآخرة لا تزيد عن وحدة صغيرة من الزمن، كيف لا، والنهائي لا يذكر في جانب اللانهائي!!

ثلاث آيات من سورة طه تطرح نسبيّة الزمن في الإدراك البشري، ليس فيما يتعلّق باللبث الدنيوي، ولا فيما يتعلّق بمدّة عالم البرزخ، بل تتعلّق بيوم الحشر الذي لا ندري كم يستمر، وإن كانت الأحاديث الشريفة تنص على طول ذلك الموقف، ولكنه في النهاية ينقضي ليكون الخلود الذي لا يتناهى، وعلى وجه الخصوص في عالم السعادة.

جاء في الآيات(102،103،104) من سورة طه:" **يوم يُنفخ في الصّور ونَحْشُر المجرمين يومئذ زُرقا، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقةً إن لبثتم إلا يوما**". تتحدث الآيات الكريمة عن حشر المجرمين وما فيه من ضيق ومعاناة إلى درجة أن تَزرقّ الجلود، وهذا، في حدود علمنا، ينتج عن نقص الأكسجين، ويزيد ذلك في معاناة المحشورين. وعند بعض أهل الاختصاص ينتج ذلك عن الخوف الشديد في المواقف التي ينعدم فيها الأمل في النجاة، مما يجعل الدم يندفع باتجاه الجهاز الهضمي بدلاً من أن يندفع إلى الجلد والعضلات. مثل هذا الواقع المضني يجعل الإنسان حساساً تجاه الأصوات والكلام، لذا فهم:"**يتخافتون بينهم**"، فكل واحد منهم يطلب من الآخر أن يغضض من صوته. وعلى الرغم من ذلك فإنّ هناك قضية في غاية الأهمية تجعلهم يتساءلون بينهم بأصوات خافتة؛ فطول الموقف ورهبته وشدّته تجعلهم يتساءلون عن طول أمد موقفهم، وكم مضى من الوقت على معاناتهم. وهنا يتّضح أنّ أقوالهم متضاربة، ومتفاوتة تفاوتاً كبيراً، عندها يتدخل البعض، ليحسموا المسألة بظنّهم، فيقولون:"**إن لبثتم إلا عشراً**"، فلم تزد المدّة عندهم عن هذا الحد. وإذا كان الحديث يتعلّق هنا بمفهوم النسبيّة، نتيجة التفاوت في الشعور البشري، فإنّ معرفة متعلّق العشر المذكورة لا يلزم.

إنّ الله تعالى هو الأعلم بأقوالهم هذه ومدى مطابقتها للواقع: "**نحن أعلم بما يقولون**": فهذه الأقوال كلها مجافية للواقع، ولكن أقلهم إجراماً، وبالتالي أمثلهم طريقةً وسلوكاً في عالم الحياة الدنيا، يذهب

إلى أنّ لبثهم لم يتجاوز مقدار اليوم، يقول:"**إن لبثتم إلا يوماً**". وبذلك يتبين لنا سر اختلافهم في تقدير زمن لبثهم؛ فقد ظهر أنّ إحساس النّاس بالوقت يوم الحشر يتفاوت بتفاوت أعمالهم في الدنيا، وبمدى صلاحهم أو فسادهم. وهذا يعني أنّ هول الموقف يتعلق بمدى صلاح الإنسان، أي أنّ هناك تناسباً عكسياً بين الصلاح والشعور بهول الموقف ومداه. على ضوء ذلك يمكن أن نفهم بشكل أفضل الأحاديث الشريفة التي تتحدّث عن أهوال الموقف يوم القيامة.

القِوامة حقٌ للمرأة

جاء في الآية **34** من سورة النساء:"**الرّجـــالُ قَوّامـــونَ علـــى النساءِ بما فَضّل اللهُ بعضَهُم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم...**".

"**الرجال قوّامون على النساء**":

القوّام: هو من يكثرُ من القيام، ومن هنا نقول:" فلان صوّامٌ قوّامٌ": أي كثير الصيام وكثير القيام. وعليه فإنّ مـــن أهـــم وظـــائف الرجـــال الأساسية كثرة القيام على شؤون النساء. واللافت هنا أنّ الصيغة هي صيغة تقرير مُشْعِرةٌ بأنّ الأمر قانون فطري.

"**بما فَضّل اللهُ بعضَهُم على بعض**":

الكثير من أهل التفسير يذهبون إلى أنّ المعنى هنا يرادف قولَنا: بمـــا فضلهُم عليهنّ. وهذا مذهب تدعو إليه الأفكار المُسبقة لدى الكثيـــرين والمتعلقة بنظرتهم الخاصّة إلى المرأة. أمّا النّص القرآني فهـــو فـــي غاية الوضوح، حيث يقول سبحانه وتعالى: "**بما فَـــضّل اللهُ بَعـــضَهُم على بعض**"؛ فالرجل مُفضّل على المرأة، والمرأة مفضّلة على الرجل. ومعلوم أنّ **الفضل في اللغة هو الزيادة**. ولا شك أنّ لدى الرجل زيادة شاءها الخالق الحكيم لتتناسب مع وظيفته، ولدى المرأة زيادة تتناسب مع وظيفتها. وعليه لا نستطيع أن نُفاضل بين الرجل والمـــرأة حتـــى

نُحدّد الوظيفة، تماماً كما هو الأمر في الطبيب والمهندس؛ فإذا كان المطلوب بناء بيت فالمهندس أفضل. والطبيب أفضل عند مقاومة الأمراض... وهكذا.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذن يُكثِر الرجالُ من القيام على شؤون النساء؟! والجواب هنا: أنّ الفضل الفطري لدى الرجال اقتضى واجباً عليهم تجاه النساء، وفضل النساء اقتضى حقاً لهنّ على الرجال. ففضل الرجل أنتج واجباً، وفضل المرأة أنتج حقاً. ولا شك أنّ بعض جوانب فضل الرجل الفطرية (زيادته) جعلته الأقدر على الكسب في الواقع الاقتصادي، أمّا فضل المرأة فقد أعاق قدرتها على الكسب، لذا فقد أنتج فضل الرجل في هذا الجانب واجباً، في حين أنتج فضل المرأة حقاً. وبناءً على ذلك كان الرجل هو الأكثر قياماً على شؤون المرأة، لما أنتجه فضلُهُ من واجبات، ولما أنتج فضل المرأة لها من حقوق.

اللافت في الاجتماع البشري أنّ القيام بالواجب يُنتج حقاً يُكافِئ القيام بهذا الواجب. واللافت أنّ كل وظيفة في المجتمع يقابلها من الحقوق ما يكافئها ويساعد على القيام بها؛ فرئيس الدولة، مثلاً، هو أعظم الناس مسئوليّة وبالتالي هو الأعظم حقاً. وبقدر تحمّلِه للمسئولية يقابله الناس بمردود من الحقوق تساعده على القيام بوظيفته. والشُرَطيّ هو صاحب مسئولية تَفرضُ حقوقاً تساعده على القيام بواجبه. وطاعته من قبل الجماهير مفروضة اجتماعيا. وفي الوقت الذي يشعر فيه الناس بتفريطه وتقصيره بواجبه يقابلونه بالعصيان

والرفض والاحتقار. أمّا الطاعة والقبول والاحترام فلأولئك الذين يُخْلِصون ويقومون بواجبهم خير قيام.

وإذا كان الرجل قوّاماً يؤدّي واجباته ويمارس وظيفته، فلا بد أن يقابل ذلك ما يُكافئه من الحقوق. والعجيب أنّ معنى القِوامة عند الكثيرين يُرادف معنى الحق الذي هو للرجل على المرأة، في حين أنّ معنى القِوامة في اللغة يشير بوضوح إلى الواجب الذي هو على الرجل تجاه المرأة، أي أنه حقّ المرأة وليس حقّ الرجل. أمّا حق الرجل فهو الأثر المترتب على قيامه بواجبه، وهو المردود المتوقّع نتيجة القيام بالوظيفة.

إذ تسوّروا المحراب

"وهل أتاكَ نبأُ الخصمِ إذ تسوّروا المِحراب. إذ دخلوا على داودَ ففزِعَ منهم، قالوا لا تَخفْ خَصمانِ بَغى بَعضُنا على بعض، فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولِيَ نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفِلنيها وعَزّني في الخِطاب. قال لقد ظلمكَ بسؤالِ نَعجتِك إلى نِعاجه، وإنّ كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضُهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليلٌ ما هم. وظنَّ داودُ أنّما فَتنّاهُ فاستغفرَ ربّه وخَرّ راكعاً وأناب. فغفرنا له ذلك، وإنّ له عندنا لزُلفى وحُسنَ مآب. يا داودُ إنا جعلناكَ خليفةً في الأرضِ فاحكم بين الناس بالحقِّ ولا تتبعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله. إنّ الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسوا يومَ الحِساب" (ص: 21– 26).

تفسير هذه الآيات الكريمة يصلح مثالاً صارخاً على مجافاة بعض أهل التفسير لظاهر النص القرآني جرياً وراء الإسرائيليات التي ألقت بظلالها السلبيّة على أفهام الكثير من القدماء والمعاصرين. ونحن هنا نفترض أنّ القارئ على دراية بمسلك المفسرين عندما يفسرون هذه الآيات الكريمة. وما نهدف إليه في هذه العُجالة هو إلقاء

الأضواء على جوانب هي في رأينا مفاتيح تساعد في فهم بعض دلالات كلام الله الحكيم.

"**وهل أتاكَ نبأ الخَصْمِ إذ تسوّروا المحراب**": واضح في النص الكريم أنّ المتخاصمين هم جماعة وليس فقط الأخوان، بدليل قوله تعالى: " **إذ تسوّروا... إذ دخلوا**"، وبدليل قولهم: "... **خصمان بغى بعضُنا على بعض...**". فهُم جماعة منقسمة إلى قسمين متخاصمين، وهذا يعني أنّ الإشكال لم يكن مقتصراً على الأخوين.

"**إذ تسوّروا المحراب**": هذه من العبارات المفتاحيّة، والتي تساعد على فهم حقيقة ما جرى؛ فهناك جماعة مضطرة أن تأتي البيوت من ظهورها، وهذا يدل على عدم إمكانية أن يدخلوا من الباب. أما ذكر المحراب فيشير إلى أنّ داود، عليه السّلام، كان قد اختلى بنفسه ليعبد الله تعالى، وقد جاء في الحديث الشريف أنّ داود، عليه السّلام، كان أعبدَ الناس.

"**إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة ولي نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفلنيها وعَزّني في الخطاب**": من المستبعد أن يطمع الأخ الغنيُّ بنعجة أخيه، ولا يحصل مثل ذلك إلا في حالات شاذّة ومَرَضِيّة. والأقرب إلى ظاهر النص الكريم أنْ نقول إنّ الأخ الغني قد طلب من أخيه أن يَضُم نعجته إلى باقي النعاج لترعى معها، لأنّ ذلك أصلح لها، وأرفق به أن يجعلها مع باقي الغنم. ومثل هذا الأمر متوقع أن يكون بين الأخ وأخيه، بل هذا ما تفرضه أدنى درجات الأخوّة وصلة الرحم.

"**فقال أكفلنيها**": هو إذن يريد أن يجعلها في كفالته، ولا يوجد في النص الكريم ما يشير إلى أنه كان يريد أن يتعدّى على حقّ أخيه فيغصبها. ومتى كانت الكفالة في اللغة تعني الأخذ والاغتصاب؟! أمّا في القرآن الكريم فلم ترد الكفالة إلا بمعنى الحفظ والرعاية والضمانة، من مثل قوله تعالى، في حق مريم، عليها السّلام: "**وكفّلها زكريا**...". ويبدو أنّ الأخ الغني كان حَريصاً على مصلحة أخيه فألحَّ عليه في طلب ضمّ النعجة إلى باقي النعاج لتكون في كفالته:"**وعَزّني في الخطاب**".

من هنا كانت البداية، وهي صورة تتكرر في المجتمعات الإسلاميّة؛ فأنت تجد دواعي الأخوّة تمنّع الكثيرين من اقتسام الميراث، بعد وفاة المُورِّث، مما يؤدي إلى تداخل الحقوق وتشابكها، بحيث يصعب فيما بعد الفصل في هذه الحقوق من غير إلحاق ظلم بطرف من الأطراف. وبمرور الوقت تدخل أطراف أخرى مثل الزوجات والأحفاد والأصهار وغيرهم، وتكون الشحناء والبغضاء وقطع الرحم، في حين أنّ الدوافع الأصلية كانت الرغبة في صلة الرحم.

"**قال لقد ظلمَكَ بسؤالِ نعجتِكَ إلى نعاجه**": نعم، هذا هو الأصل الذي ولّدَ الظُلم؛ فعندما طَلَبَ منك أن تضمّ نعجتك إلى نعاجه، باسم الأخوّة، كان ظالماً لك، لأنّ ذلك أدّى إلى اختلاط الأمور وتداخل الحقوق، ودخلت في الخُصومة أطراف أخرى.

يمكن تصور ما حصل على الصورة الآتية: الأخ الغني يطلب من أخيه، رحمة به، أن يَضُم نعجته إلى نعاجه الكثيرة. ومضت الأيام، وبما أنها نعجة أنثى فمن المتوقع أن تكون قد توالدت وتكاثرت، ولا يبعد أن يكون هناك رعاة يرعون الغنم على قِسم، كما هو عادة الكثير من القدماء. وبما أنه لم يتم ابتداءً الاتفاق على تفاصيل الأمر، أهو مشاركة أم هو مجرد كفالة تطوعيّة، فقد نشأ نزاع بين عدة أطراف. وهذا التصور يساعدنا في فهم كونهم جماعة متنازعة:".. **بغى بعضُنا على بعض**"، "... **وإنّ كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضُهم على بعض...**".

"**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق...**": من كان في مثل هذا الموقع يكون مسئولاً عن الفصل بين الناس، ومن قَبل ذلك يكون مسئولاً عن هدايتهم إلى سواء الصراط، وهذا يقتضي أن يُنفق معظم وقته في إرشاد الناس وتعليمهم ووعظهم، والفصل بينهم فيما أشكل عندهم. ومعلوم أنّ إنفاق الوقت في تعليم النّاس وقضاء حوائجهم والقيام على مصالحهم مُقدّم على التفرّغ لعبادة الصلاة. أمّا أن يُكثر داود، عليه السلام، من التعبد في محرابه، حتى يضطرهم إلى أن يتسوّروا المحراب ليصلوا إليه، فأمر يحتاج إلى تذكير وتنبيه. وقد كانت هذه الحادثة هي المُنبّه لداود، عليه السلام، فسارع إلى الإنابة والاستغفار.

"**وظنّ داودُ أنّما فتنّاه**": نعم، هذه الحادثة جعلت داود، عليه السّلام، يتنبّه إلى بعض وجوه التقصير التي يمكن أن يكون قد دفعه

إليها حبّه للتفرّغ للعبادة، فأدرك، عليه السّلام، أنه قد امتحن من أجـــل تنبيهه إلى الأولويّات التي يجب أن يتنبّه إليها.

"**وظنّ داودُ أنّما فتنّاهُ فاستغفرَ رَبّه وخَرَّ راكعاً وأناب، فغفرنا له ذلك...**" إنّ مقام النبوّة يقتضي حساسيّة شديدة تجاه أي تقصير، أو حتى أدنى غفلة عن الأولويّات، وإن حصلت مثل هذه الغفلة فلا تلبث أن تزول، ولا يلبث النبي أن يُنيب إلى الله تعالى. ولا يجوز هنـــا أن يذهب بنا الخيالُ مذاهب فنتصوّر أنّ النبي يستغفرُ من كبيرة، بـــل إنّ الاستغفار هو ديدن الأنبياء، فهذا رسول الله، صلى الله عليـــه وســـلم، يستغفر الله تعالى في اليوم مائة مرّة. وصدق من قال:"حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرّبين"، فشتّان بين دواعي استغفارنا ودواعي اســـتغفارهم، عليهم السّلام.

نظرات في سورة يوسف

- الرؤى تصنع الأحداث
- وقطّعن أيديهن
- وأعلمُ من الله
- نحن عُصبة!!
- اجعلني على خزائن الأرض
- وَجَاء بِكُم مِنَ الْبَدْوِ
- ألفاظ ودلالات
- من أسرار البلاغة القرآنيّة

الرؤى تصنع الأحداث

القضاء هو علم الله السابق بحصول الأشياء قبل حصولها، والرؤيا الصادقة هي إطلاع الإنسان على القضاء قبل أن يتحقّق فيصبح قدراً. أي أنّ الإنسان يمكن أن يطّلع في منامه على الغيب المستقبليّ. ويبدو أنّ ذلك من لَمّة المَلَك أثناء النوم. وتُعتبر الرؤى الصادقة الدليل القاطع على وجود القضاء؛ أي العلم بحصول الشيء قبل حصوله، وهي رحمة ربانية تُقرّبُ فكرة القدر إلى العقل البشري القاصر عن إدراك كُنه العلم الإلهي المطلق. ومن رحمته تعالى أن جعل الرؤيا الصادقة منتشرة في المجتمعات البشرية كافّة، ولا تقتصر على المؤمن دون غيره، وهي من الانتشار بمكان، بحيث لا يمكننا قبول الزعم بحصولها على وجه الصدفة.

تُستهل سورة يوسف برؤياه عليه السلام:" **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأبيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**"، ويدركُ الأب النبيّ أنّ هذه الرؤيا ترمز إلى اصطفاء ولده يوسف، عليهما السلام، وأنّ سلسلة النبوّات، التي بدأت بجده إبراهيم، عليه السلام، ستستمر في نسله، وهو يدرك أيضاً أنّ هذا الفتى سيكون رسولاً، لأنّ سجود والده له يعني أنّ مرتبته فوق مرتبة أبيه النبي، أي أنّه سيكونُ رسولاً نبيّاً. واللافت أنّ الرؤيا قد تحققت حسّاً ومعنى،

انظر ما جاء في خواتيم سورة يوسف: " **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً...**"، فالصورة الحسّيّة للسجود المُعبّر عن الاحترام والاعتراف بالفضل قد تحقّقت كما ورد في الرؤيا. ولم يحصل هذا السجود إلا بعد تحقّقهم من فضل يوسف، عليه السلام، وذلك عند ظهور حقيقة الاجتباء الربّاني، الذي كان يعقوب قد استيقنهُ عندما قصّ عليه يوسف، عليهما السلام، رؤياه.

ومما يلفت الانتباه أيضاً أنّ رؤيا يوسف، عليه السلام، قد كشفت عن غيب مستقبلي يكون بعد سنين طويلة. وقد أدّى هذا الكشف إلى أن يُميّز يعقوب، عليه السلام، ولده يوسف في المحبّة والمعاملة والحرص، وأصبح يخاف عليه أن يفقده، وظهر ذلك في سلوكه، مما أدّى إلى تآمر إخوته عليه، فكان ذلك كله المقدّمة المُفضية إلى تسلسل الأحداث التي انتهت بتحقق الرؤيا على أرض الواقع. والعجيب هنا أنّ الرؤيا، التي هي إطلاع على حوادث المستقبل قبل وقوعها، قد **تحوّلت إلى مقدمة أدّت إلى تحقّقها.**

جاء في الآية **36** من سورة يوسف: " **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ".

قام يوسف، عليه السلام، بتأويل رؤيا السجينين، وبذلك تمّ إطلاعهما على المستقبل قبل حصوله. واللافت هنا أنّ تأويل هذه

الرؤيا كان سبباً في خروجه، عليه السلام، من السجن، وبذلك نكتشف أنّ إطلاع السجينين على مصيرهما المستقبلي كان من حكمته أن يكون هذا الإطلاع مقدّمة لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن.

وجاء في الآية 43 من السّورة: " **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ** ".

إنها رؤيا جاءت بخير عظيم، من أجل مجتمعات توشك أن تتعرّض للقحط والمجاعة، لذا لا بدّ من الاستعداد، واستغلال الوفرة قبل القحط. وشاء الله تعالى أن تكون هذه الرؤيا سبباً لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن، وتوليّه أعلى منصب في الدولة بعد المَلِك. ومثل هذا التمكين يساعده، عليه السلام، في نشر رسالته، في المجتمع المصري.

لا بد أن تكون الرؤيا لأعلى سلطة، ألا وهي الملك، وذلك ليتحقق ما تحقق من خير. وبإمكاننا أن نتصوّر الأثر الضئيل وغير الملموس لتلك الرؤيا على المجتمع المصري، وغيره من المجتمعات، لو كانت لواحد من عامّة الناس؛ إذ عندها ستبقى الرؤيا مجرد إطلاع على المستقبل، بل لن يكون من السهل معرفة ما وراءها من رموز دالة على هذا المستقبل. أمّا عندما تكون الرؤيا هي رؤيا الملك، وعندما تتكرر لديه (**إنّي أرى**)، فإن في ذلك ضمانة للفت انتباهه وجلب اهتمامه. كل ذلك من أجل أن يعلم تأويلها، فتتم نعمة الله على

المجتمع المصري وغيره من المجتمعات، التي كانت تحت سلطان الهكسوس الذين حكموا بلاد الشام وشمال مصر في تلك الحقبة.

لقد كشفت هذه الرؤيا عن واقع سيكون بعد سنين طويلة، فأدّى كشفها هذا إلى تدارك ما سيحلُّ من أخطار؛ أي أنّ الرؤيا كانت ابتداءً كشفاً لواقع مستقبليّ، ثم تحوّلت إلى مقدّمة أدّت إلى تحقّقها، وهذا جدل يجب أن يدفعنا إلى تدبّر أعمق لحقائق القضاء والقدر.

لقد كانت رؤيا الملك مُجلّية ومُسَرِّعة لظهور تأويل رؤيا يوسف، عليه السلام. أمّا رؤيا السجينين فكانت المفتاح لتفعيل رؤيا الملك. وتبقى رؤيا يوسف، عليه السلام، هي البداية والنهاية، أي أنّها المقدّمة والنتيجة لذلك كله.

يبدو أنّنا بحاجة إلى إعادة النظر في فهمنا للرؤيا الصادقة، وفلسفتها، ودورها في الواقع الإنساني.

وقطّعن أيديهن

جاء في الآية **31** من سورة يوسف:"**فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعتدت لهنّ مُتكأً وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكِّيناً وقالت اخرج عليهنّ، فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ، وقلن حاشَ لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلا مَلكٌ كريم**".

اللافت في الآية الكريمة أنّ امرأة العزيز أعطت كل واحدة من النساء سكِّيناً، وهذا يعني أنّ النساء يعرفن الهدف من توزيع السكاكين عليهنّ كلهنّ. أمّا القول بأنها قدّمت لهن فاكهة فهو غير مقبول من وجوه:

أ- لم تُذكر الفاكهة في الآيات الكريمة، وليس المقام هنا مقام تكريم للنساء اللاتي أسأن لسمعة زوجة العزيز واغتبنها.

ب- لو كان المقصود الفاكهة والإكرام لذكر القرآن الكريم ذلك بإشارة أوضح. وذِكْرُ السكّين، التي هي أداةٌ تُقشّر بها الفاكهة وتستخدم في أغراض متنوّعة، ورد في سياق الحديث عن تجريح الأيدي ولم يرد في سياق الحديث عن كَرَم الضيافة، فَلِمَ التّزيُّد؟!

ج- العادة أن يتم وضع الفاكهة ومستلزماتها أمام الضيف، وليس هناك من عادة ولا مسوّغ لتوزيع السكاكين، وليس هناك من داع لتوزيع السكاكين على كل واحدة، بل يترك الأمر في العادة لتقدير الضيف وحاجته.

د- كانت النتيجة أن جَرّحت النساء أيديهنّ، وهذا يدلّ على أنّ توزيع السكاكين كان من أجل تحقيق مثل هذه النتيجة، وليس من أجل تقشير الفاكهة، فليس المقام مقام إكرام.

أمّا القول بأنّ تجريح الأيدي كان نتيجة الدهشة والذهول، وذلك عندما رأت النساء يوسف، عليه السلام، فهو مردود من وجوه:

1. لو كانت النساء منشغلات بأكل الفاكهة لكان ذهولهنّ واندهاشهنّ لجمال يوسف، عليه السلام، صارفاً لهنّ عن الاستمرار في الأكل والتقشير، فهذه طبيعة الإنسان؛ أنّه إذا انشدّ إلى شيء ذَهَل عن الأشياء الأخرى.
2. لو كانت النساء تأكل على إيقاعٍ موسيقيّ يقوده (مايسترو) لأمكن تصوّر أن يتم جرح أيدي النساء كلهنّ في وقت واحد، أمّا أن تُجرح كل يد بأكثر من جرحٍ في آنٍ واحد فغير مُتصوّر.
3. يفترض عند أوّل جرح أن يتم التنبّه، أمّا أن يكون هناك أكثر من جرح ثمّ لا يتم التنبّه، فهذا أمر غير متصوّر، بغض النظر عن درجة الاندهاش. ومعلوم أنّ الاندهاش لا يكون عند النساء بدرجة واحدة. أمّا الدليل على حصول أكثر من جرح في كل يدٍ فقوله تعالى:" **وقطّعن**"، فهذه صيغة مبالغة وتكثير للفعل.
4. وجود السكّين مسبقاً دليل على أنّ التجريح مقصود ومتعمّد، وليس نتيجة ذهول واندهاش.
5. يقول يوسف، عليه السلام، لرسول الملك:"**ارجع إلى ربك فاسأله ما بالُ النسوةِ اللاتي قطّعن أيديهن؟**"، فهذا يدل على أنّ يوسف،

عليه السلام، يريد أن يرسل إلى الملك برسالة مختصرة تجعله يدرك حقيقة ما حصل قبل سنوات؛ فتجريح الأيدي لا بدّ أن تكون له دلالة يفهمها الملك، لذا نجد أنّ الملك، وبعد وصول الرسالة، يقول للنساء:"**ما خطبكنّ إذ راودتن يوسف عن نفسه**"، وهذا يشير إلى أنّ تقطيع الأيدي له دلالة عُرفيّة شائعة في ذلك الزمان. ولم يكن مجرد صدفة عجيبة.

فما سرّ تقطيع (تجريح) الأيدي؟!

لا نستطيع هنا أن نقدّم التصور الحقيقي للدافع الكامن وراء تجريح الأيدي، ولكن سنحاول أن نقدّم تفسيراً نراه أقرب إلى النص القرآني، وأقرب إلى العقل والواقع.

ترجع قصة يوسف، عليه السلام، إلى زمنٍ مغرق في القِدم، أي ما يقارب (**3600**) سنة، على أقل تقدير. وهذا يعني احتمال وجود عادات وتقاليد هي اليوم مندثرة، وعلى وجه الخصوص عندما نعلم أنّ الحكّام في عهد يوسف، عليه السلام، هم الملوك الرعاة الهكسوس، الذين هم من ملوك البدو. بل إنّ يوسف وإخوته قد عاشوا في مجتمعات بدويّة، بدليل قوله تعالى، على لسان يوسف، عليه السلام، مخاطباً أهله:"**وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو**". وهذا يعني أنّ احتمال وجود العادات الغريبة، المجافية للتحضّر، هي أكبر.

العزيز صاحب أعلى منصب بعد الملك، ومجموعة من النساء تذكر زوجته بسوء، وهُنّ مقتنعات بأنّ هذه الزوجة ضالّة، وضلالها بيّن:"**إنا لنراها في ضلال مبين**". تقوم زوجة العزيز صاحبة النفوذ والسلطان باستدعاء النساء الطاعنات بها، وبسلوكها، لتقدّم لهنّ العذر المستدعي للاعتذار. ولا أدلَّ على عذرها ذلك من ردّة فعلهنّ عند رؤية يوسف، عليه السلام.

النساء يعرفن عادات المجتمع وتقاليده، ويعرفن واجبهنّ تجاه المنصب الرفيع؛ فكلامهنّ في غيبتها **جرحٌ معنوي لمقام رفيع**، وهذه جُرأة لا بد من الاعتذار عنها بما يليق؛ فالجرح المعنوي لهذا المقام لا يغفره إلا **جرح حسيّ**. والاعتذار يكون في العادة أشدّ عندما تظهر البراءة. من هنا لم تكتف النساء بجرح واحد، بل كررن ذلك، لمزيد من الاعتراف والأسف. وعندما رأت زوجة العزيز ذلك سارعت إلى القول:"**فذلِكُنّ الذي لُمتُنني فيه**" .

إضافة إلى الاعتذار الحسيّ عن الجرح المعنوي يمكن أن يكون مثل هذا السلوك، عند تكراره، يدل أيضاً على رغبة في **المشاركة**. ومما يُعزّز مثل هذا الاحتمال:

1. قوله تعالى على لسان الملِك:"**ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف**".
2. قوله تعالى على لسان يوسف:"**ربّ السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عنّي كيدهنّ**...".

فالمراودة لم تعد مقتصرة على زوجة العزيز، بل حصل نوع من التواطؤ بين النسوة، وكأنه الحلف. وقد رأينا في بعض عادات

البدو اليوم أنهم إذا أراد شخص أن يعاهد شخصاً على التعاون والوفاء يقوم كلّ منهما بجرح أصبعه، ثم يجعلان الدمّ على الدمّ، ليتم اختلاط الدماء، كرمز لقوة التحالف بين الشخصين. فإذا كان ذلك يحصل إلى اليوم، فكيف بنا لو رجعنا إلى ما قبل ستة وثلاثين قرناً؟!

وخلاصة الأمر أنّ الاحتمال الأقوى عندنا أن تكون النساء قد قدّمن الاعتذار بجرح الأيدي وإشهار ذلك أمام زوجة العزيز، ثم كرّرن الجرح ليُعلِنّ عن التعاطف والمشاركة. وإذا كان الإنسان المتحضّر اليوم يقبل بالاعتذار اللفظي عن الجرح المعنوي، فإن الإنسان القديم لم يكن ليرضى بأقل من الممارسة السلوكية المعبّرة عن الأسف الحقيقي. ولا ننسى أنّ المقامات العليا في نُظم الحُكم القديمة كانت تتلبّس بلباس القداسة، ولها منزلة مستمدّة من الدين، وهذا يجعل الاعتذار ممارسة فيها مثل هذه القساوة.

وأعلمُ من الله

جاء في الآية **4** من سورة يوسف:"**إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين**".

وجاء في الحديث الصحيح أنّ أول ما بُدِئ به الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الوحي الرؤيا الصادقة. ولا يبعد أن يكون ذلك سُنّة في الأنبياء. وإذا صحّ هذا الفرض فإنّ أول ما بُدِئ به إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، عليهم السلام، من الوحي هو الرؤيا الصادقة. وهذا يعني أنّ يعقوب، عليه السّلام، كان ينتظر بشغف أن تستمر سلسلة النبوة في نسله، كيف لا، وهو نبيّ، وأبوهُ نبيّ، وعمُّهُ نبيّ، وجدّهُ نبيّ ؟!

ولكن في أيّ الأبناء ستكون النبوّة، وفي أيّهم ستكتمل النّعمة الرّبانية ؟!. وبإمكانك أن تتصور بعض ما في قلب يعقوب، عليه السلام، من شوق وتلهّف لمعرفة المصطفى من بين أبنائه الإثني عشر. وبإمكانك أن تتخيّل يعقوب، عليه السّلام، وهو يوصي أبناءه أن يسارعوا إلى إخباره بما يرونه في مناماتهم. ويدفعنا إلى ترجيح مثل هذا الاحتمال ما نلمسه من مسارعة يوسف، عليه السلام، في عرض رؤياه على والده:"**يا أبتِ إنّي رأيتُ**". وتظهر المسارعة في قوله (**رأيت**) بصيغة الماضي. أمّا الملك، الواردة قصّته في السورة، فقد تريّث قبل أن يعرض رؤياه على الملأ:"**وقال الملك إنّي أرى**" والفعل

المضارع (**أرى**) يدل على تكرار الرؤيا لدى الملك قبل أن يعرضها على المستشارين. وكذلك الأمر في رؤيا صاحبي السجن:"..**قال أحدهما إنّي أرانـي أعصرُ خَمراً، وقال الآخرُ إنّي أرانـي أحملُ فوق رأسي خُبزاً...**". **(يوسف: 36)**

إذا كان تأويل الرؤى من أخص خصائص الأنبياء فمن البدهيّ أن يَعلمَ يعقوب، عليه السّلام، من سياق الرؤيا، أنّ استمرار سلسلة النبوّة سيكون في يوسف، عليه السّلام. بل إنّ الرؤيا لتخبر بأنّ يوسف هو أكثر من نبي، إنّه رسول. ويظهر ذلك جلياً في سجود يعقوب النبيّ لابنه يوسف، عليهما السّلام:"**والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين**"؛ فالشمس تَرمز إلى والده، والقمر يرمز إلى أمّه، والكواكب ترمز إلى إخوته، كما ظهر عند تأويل الرؤيا بعد سنين طويلة:"**ورفعَ أبويهِ على العرش، وخَرّوا لهُ سُجّداً، وقال يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ مِن قبلُ قد جعلها ربّي حقّا...**". يبدو أنّ هذا ما فهمه يعقوب، بمجرد استماعه لرؤيا يوسف، عليهما السّلام، فقال:"**وكذلك يَجتبيكَ ربّك، ويُعلّمكَ مِن تأويلِ الأحاديث، ويتمّ نعمتهُ عليكَ وعلى آل يعقوبَ، كما أتمّها على أبويكَ مِن قَبلُ إبراهيمَ وإسحق، إنّ ربكَ عليمٌ حكيم**". فرؤيا يوسف، عليه السلام، تدل بوضوح على أنّ الاجتباء المنتظر سيكون له، وفيه سيكون تمام النعمة، التي كانت في إبراهيم وإسحق، ويعقوب، عليهم السّلام.

بإمكاننا أن نتخيّل مشاعر يعقوب تجاه يوسف، عليهما السلام، فقد بات يعلم أنّ هذا الفتى الصّغير هو الرسول المختار. فهل يلام،

عليه السّلام، بعد ذلك في حبّه له ؟! إنّه الحبُّ في الله، الذي هو في الأنبياء فوق حبّ الأهل والأبناء، وفوق كل حُبّ يكون لمخلوق. مِن هنا يظهر خطأ من يجعل حبّ يعقوب ليوسف، عليهما السلام، وما نتج عنه درساً في دعوة الآباء إلى عدم التمييز بين الأبناء. فحاشاه، عليه السلام، أن يُفرّق في سلوكه وتعامله الدنيوي؛ فهو الأعلم بما يجوز، وما لا يجوز، ولكنّه كما قال:"**وأعلم من الله ما لا تعلمون**".

لقد شاهد يعقوب، عليه السلام، أحداث المستقبل في رؤيا ولده. كيف لا، وهو النبي الذي علمه الله تعالى تأويل الأحاديث:"**وكذلك يجتبيك ربك ويعلّمك من تأويل الأحاديث...**"؟! ومن كان عنده مثل هذا اليقين كيف يُصَدّقُ أنّ الذئب يأكل من سيكون الرسول المصطفى، وكيف لا يبكي حتى تَبيضّ عيناهُ من الحزن على فراق صبيٍّ صغير تجلّت فيه إرهاصات الرسول الكريم، وكيف لا يناديه صباح مساء، وهو يعلم أنّه حيّ في مكان ما ويجهل حاله؟! لم يكن ما كان من يعقوب، عليه السلام، ضعفاً بشرياً، بل قوة روحانيّة، نُعذر نحن في عدم قدرتنا على تصوّرها، وإن كنّا ندرك أنّ من كان مُخلَصاً لله تعالى اشتد تَعلّقه بكل ما يُذَكّر به سبحانه. وشتان بين حبّ مَن هم مِن أهل الدنيا، وحبّ مَن هم مِن أهل الآخرة.

ونحن عُصبة!!

جاء في الآية **8** من سورة يوسف:"**إذ قالوا ليوسفُ وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عُصبة، إنّ أبانا لفي ضلال مُبين**".

ترجع هذه القصة إلى ما يقارب الـ **3600** سنة، بل أكثر. وكان المجتمع آنذاك مجتمعاً بدوياً، بدليل قوله تعالى، على لسان يوسف، عليه السّلام:"**وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو...**". وفي مثل هذه المجتمعات تُحَدّد قيمة الفرد على أساس ما يقدّمه لمجتمعه من حماية، وفعاليّة في الكسب، لذا فقد كان غريباً أن يُقَدّم الأب أبناءه الصغار على الكبار الأشدّاء، الذين يشكّلون عُصْبة تأوي إليها القبيلة:"**ونحن عُصبة!!**". وهم يرون في ذلك إساءة لهم، وضلالاً واضحاً، لمخالفته الصريحة قيم المجتمع:"**إنّ أبانا لفي ضلال مبين**"، ولأنّ المجتمع سيعتبر تقديم الصغار على الكبار العصبة احتقاراً لهم، وتصغيراً لشأنهم، وإهمالاً لهم، وهذا يُحرجهم أمام الناس. لذا وجدناهم يجتمعون لمناقشة الأمر، كيف لا، وهم الأشدُّ حساسيّةً تجاه القيم؟!

لم يكن باستطاعة يعقوب أن يُخفي حبّه الشديد ليوسف، عليهما السلام؛ فقد استيقن بعد رؤيا ولده أنّه الرسول المُجتبى، الذي ستكتمل فيه النعمة على آل يعقوب. في المقابل كانت لديه المسوِّغات التي تحمله على كتمان هذا الخبر:"**قال يا بُنيّ لا تَقصُص رؤياك على**

إخوتك...". واللافت هنا أنّ أخوة يوسف قد ظنّوا أنّ يعقوب، عليه السلام، يُقدّم يوسف وأخاه. وقد يشير هذا إلى أنّ يعقوب، عليه السلام، كان يُكثر من التردد على الخِباء الذي يسكن فيه يوسف وأخوه مع أمّهم. ثم إنّ الحرصَ الشديد من يعقوب،عليه السلام، على ولده المصطفى، ورغبته الشديدة في حمايته والاحتفاظ به، جعلهم يستيقنون أنّه يخرق قيم المجتمع؛ فيقدّم الصغار على الكبار الذين هم عُصبة، وفي ذلك إهانة لهم. ولو كشف لهم يعقوب، عليه السلام، عن حقيقة الأمر لعلموا أنّ ما يفعله، عليه السّلام، هو عين الحقّ، فليس الأمر أمر صغير أو كبير، وليس هو اختيار بشر لبشر، بل هو اختيار ربّاني، وتقديم إلهي.

ولكن لماذا لا يكشف يعقوب، عليه السّلام، عن هذه الحقيقة، فتهدأ النفوس، ويعلم الناس حقيقة الاختيار الربّاني؟!

إنّ توقّع الجميع استمرار سلسلة النبوّة في نسل يعقوب، عليه السّلام، يجعل كلّ واحد من أبنائه ينتظر أن يتمّ اختياره دون إخوته؛ فهذا شرف يطلبه كلّ واحد، ولا يلام من يطلبه لنفسه دون غيره. ويبدو أنّ يعقوب، عليه السّلام، قد توقّع نوعاً من ردود الفعل لدى إخوة يوسف، وإن كانت هذه الردود تحتمل وجوهاً. وتوقّع عليه السلام، أن تكون معرفتهم بالأمر مدخلاً لوسوسة الشيطان، الذي هو عدوٌ للإنسان يستغل حالات ضعفه وجهله. من هنا نلاحظ التنكير في قول يعقوب، عليه السلام:"**يا بنيّ لا تَقصُص رؤياكَ على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إنّ الشيطانَ للإنسانِ عَدوٌ مُبين**". نعم، إنّها الخيبةُ

التي ستكون آثارها عميقة في تلك النفوس التي استشرفت طـــويلاً أن يختارها الرّب. ولا يسهل توقّع ردّ الفعل عند حصول الصدمة. وقـــد يكون من الرحمة بهم أن يتمّ تأخير خبر الاصطفاء إلى وقتِ وقوعه، حيث يكون معظمهم قد غادر سن الشباب ودخـــل طـــور النـــضوج والاتزان. وإذا كان سنّ الأربعين هو سن الاختيار في الغالب، فـــإنّهم سيعلمون الحقيقة قبل اختيار يوسف، عليه السلام. ثـــمّ إنّ إخبـــارهم بالخبر قبل الأوان ليس من الحكمة، ولا يترتّب عليه فائدة تُرجى.

ولكنّها الحكمة الربانية، أن يعلم يعقوب، عليه السّلام، باصطفاء ولده قبل سنين من الاصطفاء، فيترتب على ذلك غِيرة شـــديدة لـــدى الأبناء، الذين يرون في قربهم من أبيهم مقياساً لصلاحهم، وذلك فـــي نظر أنفسهم، وفي نظر المجتمع أيضاً:"**اقتلـــوا يوســـفَ أو اطرحـــوهُ أرضاً يَخلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعدِه قوماً صالحين**". فإذا لـــم يكن أبوهم قد انتبه إلى مأزقهم، ولا إلى الحرج الذي هم فيـــه، وفـــق تصوّرهم، فما عليهم إلا أن يُغَيّبوا يوسف، وبـــذلك يـــزول الحـــاجز، ويقتربوا من والدهم، الذي يمنحهم بقربه المكانة الاجتماعيّة. فتآمرهم، إذن، لم يكن من جهة فسادهم، بل كان من جهة شعورهم بالإقـــصاء، ورغبتهم في القبول، وهذه حالة من حالات الضعف البـــشريّ التـــي يمكن أن تسيطر على الشباب أكثر من الشيوخ الناضجين. مـــن هنـــا نجد أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى موقف متميّـــز لكبيـــرهم:"..**قـــال كبيرُهُم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم مَوثِقاً من الله، ومِن قَبلُ ما**

فرّطتم في يوسف، فلن أَبرَحَ الأرضَ حتى يأذنَ لي أبي أو يَحكُم اللهُ لي، وهو خيرُ الحاكمين". (يوسف: 80)

إنّ الحكمة الربّانية في كشف غيب الاصطفاء تَجلَّت في المآلات التي آلت إليها الأمور؛ فالله، سبحانه وتعالى، يريد يوسف رسولاً إلى أمّة عظيمة ومتحضّرة. فانظر إلى عجيب القدر، وكيف أنّ الإلقاءُ في البئر كان مقدمةً لإكرام مثوى يوسف،عليه السلام، يقول سبحانه تعقيباً على هذا الحدث:".. **وكذلك مَكنّا ليوسفَ في الأرض، ولِنُعلّمه من تأويل الأحاديث...**". ثم انظر كيف كان السجن هو المقدمة للتمكين في الأرض:"**وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء...**" وبإمكانك بعد ذلك أن تتصور التأثير الكبير الناتج عن كون الرسول الكريم يتبوأ منصب العزيز في بلد كمصر.

اجعلني على خزائن الأرض

جاء في الآية **55** من سورة يوسف:"**قال اجعلني على خـــزائنِ الأرض إنّي حفيظٌ عليم**".

استدل بعض المعاصرين بهذه الآية على جواز طلب الإمارة، وجواز إعطائها لمن طلبها. وناقشوا، وهم في معرض تفسيرها، مدى شرعية تولي المناصب العليا في دولة لا تحكم بشريعة الله. وليس هذا مقام مناقشة الحكم الشرعي في المسألتين، وإنما هـــو مقـــام مناقـــشة صحة استدلالهم بهذه الآية. والذي نراه أنّ الاستدلال بهذه الآية علـــى القضيتين المذكورتين لا يستقيم، وهو استدلال في غير محلّه.

أمّا فيما يتعلق بطلب الإمارة فإنّ ذلك يحصل من يوسف، عليه السّلام، لأنّه، وبعد أن أطلق الملك يده في التصرف، فـــضّل، عليـــه السّلام، أن يُشرف علـــى إدارة أخطـــر قـــضية ســـتواجه المجتمـــع المصري. كيف لا، وهي تتعلق بأرواح الناس؟! بل لقد يسّر الله تعالى لهم يوسف، عليه السّلام، من قَبلُ لتعبير رؤيا الملك، رحمة بهم. انظر قوله تعالى في الآية **54**:"**وقال الملك ائتوني به استخلـــصه لنفـــسي، فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين**"؛ فقد أراد الملك أن يجعلـــه، عليه السلام، أخلص خلصائه، وبعد تكليمه جعله في مكانة تمكّنهُ مـــن فعل ما يشاء، وهو المؤتمن عنده على كل شيء. وعليـــه، فالمبـــادرة بعرض المنصب كانت من الملك، فرأى يوسف، عليـــه الـــسّلام، أن

يجعل الأولويّة للقضية الاقتصادية المُلحّة:"**قال اجعلني على خزائن الأرض...**". بهذا يتضح **أنّ يوسف، عليه السلام، لم يبادر إلى طلب الإمارة.**

أما التساؤل حول دلالة قبول يوسف، عليه السلام، منصب العزيز، والذي هو أكثر من وزير، في دولة لا تحكم بشريعة الله تعالى، فإنه تساؤل في غير مَحلّه أيضاً، وذلك للأمور الآتية:

أولاً: لم تكن تشريعات الأمم القديمة مدوّنة في صيغة قانون، بل هي أعراف وتقاليد، جزء منها ينبثق من العقيدة الدينية. وعلى فرض أنّ تلك القوانين كانت مدوّنة، فما أدرانا أنّها تتعارض مع شريعة يعقوب، أو مع شريعة يوسف، عليهما السّلام.

ثانياً: واضح في الآيات الكريمة من سورة يوسف أنّ القوم كانوا على عقيدة الشرك، ولكن ليس لدينا أيّة فكرة عن تشريعاتهم تمكّننا من الجزم بتناقض تلك التشريعات مع شريعة الله تعالى.

ثالثاً: جاء الإسلام إلى الناس كافّة، من بعثة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإلى يوم القيامة، لذا كانت شريعته، عليه السلام، كاملة، وهذا يعني أنّ حكم الله تعالى بعد نزول الإسلام أصبح ينحصر في شريعته. أمّا قبل نزول الإسلام فقد كانت الشرائع متعددة، بحيث كان لكل أمّة رسول، أي لكل أمّة شريعة تتلاءم مع واقعها.

رابعاً: لا يُتصوّر في الجانب الإداري، المتعلق بإدارة الإقتصاد في حينه، أن تتعارض إدارة يوسف، عليه السلام، مع شريعة يعقوب الخاصّة، والمتعلقة بمجتمع بدوي؛ حيث جاء في الآية **100** من سورة

يوسف: " **وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو...**". ومن الواضح أنّ الملك قد أطلق يد يوسف، عليه السلام، في التصرف، وائتمنَهُ على كل شيء.

خامساً: في الوقت الذي تعارضت فيه شريعة الملك مع إرادة يوسف، عليه السلام، في استبقاء أخيه عنده، وجدناه يدبّر للأمر، بحيث يتمّ تحكيم شريعة أبيه. وإلى هذا أشارت الآية **76** من السورة:"**.. كذلك كِدنا ليوسفَ، ما كان ليأخُذَ أخاهُ في دينِ الملكِ، إلا أن يشاءَ الله، نرفعُ درجاتٍ من نشاء، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم**".

على ضوء ما سلف، ونظراً لتطرّق الاحتمال، فلا يصحّ الاستدلال بهذه الآية الكريمة على جواز أو عدم جواز تولية طالب الإمارة، ولا يصحّ أيضاً الاستدلال بها على حكم تولّي المناصب العليا في دول لا تُحَكّم شريعة الله تعالى.

وجاء بكم من البدو

قال تعالى:"وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَـهُ مُنكِرُونَ". (يوسف: 58)

عندما دخل إخوة يوسف ،عليه السلام، عليه لأول قدوم لهم إلى مصر، عرفهم ولم يعرفوه. وهذا متوقّع لأكثر من سبب:

1. كان يوسف،عليه السلام، صغيراً عندما ألقاه إخوته في البئر وهو الآن كبير، ثمّ إنّ بُعد العهد يُنسي.
2. المقام الذي فيه يوسف،عليه السلام، يجعل الأمر بعيداً عن الذهن، حتى لو وجد الشبه.
3. تختلف الهيئة في بلاد الحضر عنها في بلاد البداوة، فكيف بنا ويوسف،عليه السلام، في مقام السّلطان.

أمّا كيف عرفهم،عليه السلام، فهذا أيضاً متوقع لأكثر من سبب:

1. دخولهم بشكل جماعي يجعل الأمر سهلاً، بل وأقرب إلى الحتميّة، فهؤلاء عشرة، لا يسهل نسيانهم مجتمعين.
2. كونهم أكبر سناً من يوسف،عليه السلام، على تفاوت بينهم في ذلك، يجعل التغيّر في هيئاتهم ضئيلاً بالمقارنة مع التغيّرات التي تطرأ على الفتى الصغير عندما يكبر.

3. هيآتهم البدويّة تجعل من السهل معرفة أنّهم غربـــاء، وتـــساعد لهجتهم في التذكير بهم.
4. لا شك أنّ إلقاء الفتى يوسف،عليه السلام، فـــي البئـــر يـــشكل صدمة له وهو يراهم مجتمعين يتآمرون عليه، وإنّ مثل هـــذه الصورة لا تُمحى من الذاكرة.
5. وحتى لو شكّ،عليه السلام، عندما رآهم، أنّهم إخوته، فيمكنـــه أن يستدرجهم في الكلام، فيعرفهم معرفة يقينية.

وهنا يثور سؤال: ما الحكمة في تريّث يوسف،عليه السلام، قبل أن يكشف لهم عن شخصه؟!

إنّ الحكمة وبعد النّظر وهيمنة العقل على القلب، كل ذلك جعل يوسف، عليه السلام، يتريّث من أجل أن يُحقق أموراً يرى فيها الخير لأهله. ونحن هنا نحاول أن نستكشف بعض وجوه هذه الحكمة، مـــع إقرارنا بأنّ حكمة الرسل، عليهم السلام، تبقى فوق قدراتنا على الفهم والإدراك، كيف لا، وهم ينهلون من معين الوحي الرّباني؟!

كان أهل يوسف،عليه السلام، يعيشون في مجتمع بدوي، وقـــد صرّح القرآن الكريم بذلك: "**وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ الـــسِّجْنِ وَجَاء بِكُم منَ الْبَدْوِ...**". ومعلوم أنّ من مقاصد الدين نقل الناس مـــن طور البداوة إلى طور التحضّر؛ فأنت تجد الإســـلام، مـــثلاً، يُحـــرّم الرجوع إلى البداوة بعد التحضّر، بل يعتبر ذلك من الكبائر. وعليـــه فمن المتوقّع أن يعمل، عليه السلام، على انتقال أهله إلـــى حاضـــرة مصر، وهو بذلك يُحسن إلى أهله. انظر قوله يخاطب أبـــاه، عليهمـــا

السلام: "...**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ...**"، فهو، عليه السلام، يعتبر مجيء أهله إلى مصر من نعم الله تعالى عليه.

ولكن كيف يمكن ليوسف، عليه السلام، أن يحقق ذلك الهدف؟!

1. ليس من السّهل على إخوة يوسف، عليه السلام، أن يقبلوا الرحيل إلى مصر عند أول زيارة. وعليه فلا بدّ من جعلهم يألفون مصر بكثرة ترددهم عليها.
2. عندما تسوء حالتهم الاقتصاديّة، وذلك نتيجة استفحال القحط، يصبح من السهل إقناعهم بترك وطنهم والقدوم إلى مصر. من هنا نلاحظ أنّ يوسف، عليه السلام، بادر إلى الكشف عن شخصه عندما شعر بأنّ إخوته قد بلغوا حالة الفقر الشديد. انظر قولهم لدى دخولهم الثالث عليه:" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**".
3. بادر يوسف، عليه السلام، إلى إحضار أخيه الصّغير واحتجزه عنده، فكان في ذلك ضمانة لرجوعهم إليه، كما وسبق له أن ردّ إليهم بضاعتهم سرّاً، ليضمن رجوعهم، وهو بذلك كُلّه يرسل الرسائل إلى أبيه، بدليل قول يعقوب، عليه السلام: "**يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ...**"، بل إنّ حزن يعقوب العميق كان بسبب علمه بوجود يوسف، عليهما السلام، فقد أدرك أنّ ولده الصغير موجود عند يوسف، عليه السلام، فأثار ذلك حزنه. انظر

قوله تعالى على لسان يعقوب،عليه السلام:" **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**"، فلم يقل: "يا أسفى على بنيامين"، لأنّ فقدان بنيامين ذكّره بيوسف، عليه السلام. ثم انظر قوله تعالى: "**يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**...". وأخيراً انظر قوله تعالى على لسان يعقوب،عليه السلام:" **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**".

ألفاظ ودلالات

دراهم معدودة:

جاء في الآية **20** من سورة يوسف:"**وشَروهُ بثمنٍ بَخسٍ دراهمَ معدودة وكانوا فيه من الزاهدين**".

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى المستوى الحضاري للمجتمع المصري في حينه؛ فقد كانوا يستخدمون الدراهم، أي أنّهم يصكّون العملة الفضية كوحدة للتبادل التجاري. في حين نجد أنّ إخوة يوسف القادمين من البدو يعرضون بضاعةً ليشتروا المواد التموينيّة. انظر قوله تعالى:"**وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رِحالهم**"، وانظر قوله تعالى:"**فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مَسَّنا وأهلَنا الضُّر وجئنا ببضاعةٍ مُزجاة** ...".

السقاية والصواع:

جاء في الآيات (**70**–**72**) من سورة يوسف:"**فلما جَهّزهُم بجَهازِهم جَعلَ السقايةَ في رَحل أخيه ثمّ أذّن مؤذن أيتها العيرُ إنّكم لسارقون. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون. قالوا نفقد صواع الملك، ولمن جاء به...**".

اللافت في الآيات الكريمة أنّ يوسف، عليه السّلام، عندما جهّز إخوته جعل **السقاية** في رحل أخيه الأصغر، وعندما أذّن المؤذِّن

قالوا:"نفقد **صُواع** الملك". فلماذا عُبّر عن **السقاية بالصواع**؟ ولماذا هو صُواع الملك؟.

يبدو أنّ الكيل، في التعامل التجاري، كان هو السائد في المواد التموينيّة، أمّا اليوم فيغلب فيه الوزن. وسواء تعاملنا بالكيل أو بالوزن فإننا نحتاج إلى مقياس مرجعيّ نرجع إليه عند الاختلاف لضبط المكاييل والموازين، وتكون هذه المرجعيّة رسميّة، وتنسب إلى السلطة العليا في البلد. وبما أنّ يوسف، عليه السّلام، كان في أعلى هرم السلطة المشرفة على الجانب الاقتصادي، وعلى توزيع المواد التموينيّة في فترة القحط، فقد وجدنا أنّ المكيال المرجعي يوجد لديه:"**قالوا نفقد صواع الملك**". وهذا يشير إلى المستوى الحضاري للمجتمع المصري في ذلك الوقت؛ فهناك سلطة مركزية تشرف على أدق الأمور بما فيها المكاييل.

لم يكن المكيال مقتصراً على المحاصيل الزراعية، كالقمح والشعير... بل كان يستخدم أيضاً في المواد السائلة، وعلى وجه الخصوص الزيت والحليب. من هنا نجد أنّ المكيال المستخدم كان يصلح لضبط كيل المحاصيل الزراعية، وكذلك كيل المشروبات السائلة. **فهو إذن صواع، وهو أيضاً سقاية.**

سيّدها:

جاء في الآية **25** من سورة يوسف:"**واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبر وألفيا سيّدها لدى الباب...**"، وجاء في الآية **30:**

"**وقال نسوةٌ في المدينة امرأتُ العزيز تُراودُ فتاها عن نفسه...**"، فهو إذن سيدها وهي امرأته، فكيف يمكن أن يجتمع الوصفان في آن واحد؟!

يقول التاريخ إنّ الملوك الرعاة الهكسوس قد احتلوا شمال مصر وطردوا ملوك الفراعنة إلى الجنوب، وبقيت سيطرتهم على الشمال المصري ما يقارب القرنين من الزمن. وكان أن وجد يوسف، عليه السلام، في مصر في زمن الهكسوس. من هنا نجد أنّ سورة يوسف، كما ألمح البعض، تخلو من ذكر الفرعون، بل: (**الملك و العزيز**)، في حين أنّ إرسال موسى، عليه السّلام، بعد ما يقارب الخمسة قرون، كان إلى **الفرعون**.

إنّ سيطرة الملوك الرعاة الهكسوس على الشمال المصري لا يعني طرد الشعب الفرعوني، بل كانت وراثتهم لنظام الحكم والسيطرة. وقد اعتادت الشعوب القديمة أن تتفاعل مع القادم الجديد في حالة فرض سيطرته. ومن المتوقع أن يقع في قبضة الهكسوس عند اقتحامهم لمصر بعض السبايا من الفرعونيّات. وإذا كانت السبيّة ذات نسب وجمال فإنّ فرصتها في العتق وفي الزواج من عِلية القوم تكون أكبر. ويبدو أنّ امرأة العزيز كانت سبيّة، أو مملوكة، ساعدها شبابها وجمالها، أو نسبها، على الزواج من العزيز، وهذه صورة مألوفة في العصور القديمة. وعليه فالعزيز (سيدها) باعتباره المُعتق لها، وهي (امرأة العزيز) باعتبار واقعها بعد الإعتاق.

وكون المرأة سبيّة يجعل إخلاصها للزوج أقل، لأنها امتُلِكت عنوة، بل قد تُسبى وهي زوجة لرجل آخر، وعليه لا ينتظر منها أن تكون مخلصة كالحرّة، ومن هنا جاء وصف العفيفة بالحرة. وهذا الوصف هو من تراث الماضي، وذلك عندما كان أغلب الزنا من شأن الإماء. وقد يكون من مؤيدات هذا الفهم والاستنباط أنّ ردة فعل العزيز لم تكن بالحدّة المنتظرة من زوج حُرّة: ".. **قال إنّه من كيدكنّ إنّ كيدكنّ عظيم. يوسف أعرض عن هذا، واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين**". وعلى الرغم ممّا حصل فقد بقيت امرأة العزيز في عصمته، بل واستمرت في ممارسة سلطانها المستمد من سلطانه، وبقيت تتصرّف تصرّف الآمن من المؤاخذة:".. **ولقد راودتُهُ عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجننّ وليكوناً من الصاغرين**"، فانكشاف أمرها لم يضعف من مكانتها. كل ذلك يعني أنّ الحدث لم يكن بالنسبة للعزيز مفاجأة غير متوقعة.

من أسرار البلاغة القرآنيّة

من المعلوم عند أهل اللغة أنّ حرف **الفاء** يدل على الترتيب والتعقيب؛ فعندما نقول:"جاء أحمد فمحمود" فإننا نقصد أن نقول:" جاء أحمد وجاء بعده محمود، بغير فارقٍ زمنيّ طويل"، فحرف **الفاء** يشير إلى العلاقة الترتيبيّة والزمنيّة بين الفعلين: (جاء و جاء)، وعليه لا بدّ أن يأتي في اللفظ بين الفعلين. أمّا حرف **الواو** فلا بدّ أن يأتي أيضاً بين الفعلين، ولكن لا يدلّ بالضرورة على ترتيب ولا تعقيب.

ما نطرحه الآن هو استقراء لتكرار كلمة (لمّا) في سورة يوسف، وذلك عندما يسبقها حرف الفاء، أو حرف الواو. وقد خرجنا بنتيجة نظن أنّها لم ترد عند أهل اللغة، ولا مانع من ذلك، لأنّ قواعد اللغة العربيّة هي في الأصل استقرائيّة.

جاء في سورة يوسف:

" وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ..." 95

" وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ..." 65

" وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ..." 94

" وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ..." 69

" فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ..." 63

" فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ..." 70

" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرّ**" 88
" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ...**" 99

اللافت في الآيات الأربع الأولى أنّه تمّ استخدام **ولمّا**. أمّا في الآيات الأربع التالية فقد تمّ استخدام **فلما**. وقد وردت **ولمّا** في سورة يوسف **6** مرّات، في حين وردت **فلمّا** في السورة **12** مرّة. وفي محاولة لاستنباط القاعدة في استخدام الفاء والواو مع لمّا نقوم باستعراض الآيات السالفة:

" **وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ** ".

هناك فارق زمنيّ بين تجهيز حمولة أخوة يوسف ووصية يوسف، عليه السلام، لهم، لأنّ الرحيل في العادة لا يكون بعد التجهيز مباشرة، وإنما كان يرتبط بالوقت المناسب لرحيل القوافل. ولا تكون الوصية في الغالب إلا عند اقتراب الرحيل، أو عند وداع المسافرين. من هنا، ونظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل **جَهَّزَ** والفعل **قَالَ** ، ناسب أن ترد **الواو** مع الأداة **لمّا**.

" **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ** ".

جاءت **الفاء** هنا مع الأداة **لمّا** لعدم وجود فارق زمنيّ كبير بين الفعل **جَهَّزَ** والفعل **جَعَلَ**، لأنّ يوسف، عليه السلام، عندما أراد أن

يضع صُواع الملك في رحل أخيه الصغير اختار أن يكون ذلك عنـــد تجهيز الرحال.

" **وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ** ".

استخدمت **الواو** مع الأداة **لمّا** هنا نظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل **دَخَلُواْ** والفعل **آوَى**، لأنّ يوسف، عليه السلام، لم يكن قد كشف عن شخصيّته لإخوته، وبالتالي لم يكـــن بالإمكـــان أن يخلـــو بأخيـــه الصغير فور دخولهم، بل كان لا بد له من الحيلة وانتهاز الفرصة أو افتعالها، لينفرد به ويعرّفه على نفسه.

" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ** ".

جاءت **الفاء** هنا مع الأداة **لمّا** لعدم وجود فارق زمنـــيّ بـــين الفعل **دَخَلَ** والفعل **آوَى**، وذلك لأنّ يوسف، عليه السلام، كان ينتظـــر حضور أبويه على أحرّ من الجمر، فكيف لا يـــسارع إلـــى ضـــمّهما وإيوائهما إليه بمجرّد دخولهما؟!

" **وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ** ".

جاءت **الواو** مع الأداة **لمّـــا** هنا نظراً لوجود فارق زمنيّ بـــين الفعل **فَتَحُواْ**، والفعل **وَجَدُواْ**، وذلك لأنّ اكتشاف البـــضاعة المُخبّـــأة

داخل أكياس القمح، أو غيره من المواد التموينيّة، لا يتم بمجرد فتح هذه الأكياس، بل لا بد من مرور بعض الأيام، وعلى وجه الخصوص، في ذلك الزمن، الذي كانت فيه أساليب الطحن بدائيّة، فيتمّ الأخذ من الأكياس شيئاً فشيئاً. في المقابل لا يُتوقّع أن تُجعل بضاعتهم، التي قدّموها كثمنٍ للمواد التموينيّة، في فم الأكياس:" **وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ...**"، والجعلُ في الرحال فيه معنى الإخفاء في الداخل. وقد يَحسُن هنا أن نلفت الانتباه إلى أنّ إخوة يوسف، عليه السلام، كانوا يعيشون في مجتمع بدوي مما يعني أنّ بضاعتهم يمكن أن تكون من المنسوجات أو المصنوعات، وعلى وجه الخصوص الحليّ المختلفة.

" **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ** ".

وردت **الواو** مع الأداة **لمّا** هنا نظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل **فصل** والفعل **قال**، لأنّ القوافل تقترب شيئاً فشيئاً، وعندما تقترب تبدأ بالانفصال يميناً وشمالاً، كلٌ يقصد قبيلته، ويستغرق ذلك زمناً. وقد استشعر يعقوب، عليه السلام، ذلك، ووجد في نفسه قرب لقاء يوسف، عليه السلام. ويتكرر الوجدان لديه ويقوى إلا أنّه يكتم ذلك، خشية التكذيب:"**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**"، فاستخدام الفعل **أَجِدُ** يدل على تكرار واستمرار

الوجدان. ولمّا قوي لديه، عليه السلام، ذلك صرّح به، وطول الكتمان تشير إليه لَوْلاَ؛ أي لولا معرفته، عليه السلام، بموقفهم المُكذّب، لسارع إلى الإخبار بما وجده من إشعار ربّاني.

" **فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ** ".

أمّا هنا فجاءت **الفاء** مع الأداة **لمّا** وذلك لعدم وجود فارق زمنيّ كبير بين الفعل **رَجَعَ** والفعل **قال**، وهذا يشير إلى مسارعة إخوة يوسف، عليه السلام، لإخبار أبيهم بأنّهم قد مُنعوا من الرجوع إلى مصر. وهذه المسارعة كانت بمجرد لقائه، كيف لا، وهي مسألة في غاية الأهميّة في مجتمع بدوي يعاني من القحط الشديد؟! ويضاف إلى ذلك أنّهم قوم من البدو البسطاء، والمسارعة إلى عرض المشكلات لديهم من الأمور المتصوّرة في مثل هذه الحالات. وقد يكون من مقاصد القرآن الكريم هنا أن يكشف عن هذه الحقيقة النفسيّة.

" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ".

جاءت **الفاء** هنا مع الأداة **لمّا** لعدم وجود فارق زمنيّ كبير بين الفعل **دَخَلَ** والفعل **قالَ**، لأنّ أخوة يوسف، عليهم السلام، قد جاءوا وهم في حالة شديدة من الضنك والمعاناة، كما هو ظاهر في النص

الكريم. ومن المتصوّر عندها أن يبادروا إلىعرض مشكلتهم بمجـــرد دخولهم على العزيز. وفي هذا تشخيص بليغ لواقعهم النفـــسي النـــاتج عن واقعهم الاقتصادي. ولا عجب عندها أن يبـــادر يوســـف، عليـــه السلام، إلى الكشف عن حقيقته!

من هنا ندرك أنّ البلاغة ليست مجرد قـــدرة علـــى التلاعـــب بالألفاظ، بل هي القدرة على البيان عن الواقع وتشخيصه في أصـــدق وأجمل صورة.

للمتابعة.....

- **يحيى** عليه السلام
- **تشابُه مُلهِم**

يحيى
عليه السلام

ندوة نون هي صيغة قديمة جديدة، حيث يجتمع عدد من المهتمين وأهل الاختصاص لتدارس مجموعة من الآيات القرآنية الكريمة. في كل مرّة يكون، بفضل الله، هناك جديد، وفي كل مرّة تتجلى أهمية هذه الصيغة في تدارس القرآن الكريم، وفي كل مرة ينفض المجلس ولدى كل واحد من أعضاء الندوة شعور بالرضى، وأحياناً بالنشوة، فمتعة العلم والتفكير لا تساويها متعة، فكيف إذا كان العلم والتفكير يتعلقان بكتاب الله رب العالمين؟ .

يكون النقاش تفصيلياً، وكثيراً ما يقود هذا النقاش إلى وجوه جديدة في تفسير القرآن الكريم، ويغلب أن تتحصّل أفهام جديدة ترتكز إلى اللغة العربيّة، وما صحّ من الأحاديث، وتفسير القرآن بالقرآن، وتنطلق من فهم السلف والخلف الصالح من المفسرين. ونحن هنا عندما نستعرض بعض المسائل إنّما نهدف إلى التعريف بمنهجيّة الندوة، كما ونهدف إلى إثارة الدافعية لدى القارئ لتحقيق التواصل مع القرآن الكريم من أجل فهم أفضل لكتاب الله الحكيم.

يذهب جماهير المفسرين إلى أنّ **يحيى**، عليه السلام، قد قُتل. وهم يستندون في ذلك إلى القصة التي وردت في الأناجيل. والعجيب أنّ ذلك قد أصبح عند الكثير من المفسّرين من الأمور المسلّمة التي لا

تحتمل النقاش ، على الرُّغم من أنه لم يصح في ذلك حديث. بل إنّ القول بمقتل يحيى، عليه السلام، يناقض ظاهر القرآن الكريم. وإليك بيان ذلك:

أولاً: جاء في الآية **15** من سورة مريم: " **وسلامٌ عليهِ يوم وُلِدَ، ويوم يموتُ، ويوم يُبعثُ حياً** "، فالآية القرآنية تُصرِّح بأنّ يحيى، عليه السلام، سيموت، وقد فرّق القرآن بين القتل والموت. ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: " **ولئن قُتلتم في سبيل الله أو مُتّم..**" (آل عمران: **157**)، وفي قوله تعالى: " **وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَت من قبلهِ الرسل، أفإن ماتَ أو قُتل...**" (آل عمران:**144**)، وفي قوله تعالى: " **ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً...**" (آل عمران:**169**). بل إنّ الآية الأخيرة تنهى عن وصف من قُتِل في سبيل الله بأنّه ميّت. فكيف يصف القرآن الكريم يحيى، عليه السلام، بأنه ميّت إذا كان قد قتل في سبيل الله؟!

ثانياً: في قوله تعالى: " **وسلامٌ عليهِ يومَ وُلِد، ويومَ يموتُ...**"، دليل أخر على أنه، عليه السلام، لم يُقتل، لأنّ القتل يتناقض مع السّلام الذي يحلُّ عليه من الله. فكيف يقول الله تعالى إنّ السلام عليه يوم يموت، ثم نقول نحن إنّه قد قتل؟!

ثالثاً: اشتهر عند أهل التفسير أنّ زكريا ويحيى، عليهما السلام، قد قُتلا معاً، أو في وقت متقارب. وهذا القول يتناقض مع ظاهر قوله تعالى من سورة مريم: " **وإني خِفتُ الموالِيَ من ورائي وكانت امرأتي عاقراً، فَهَبْ لي من لدنكَ وليّاً يرثني ويرثُ من آلِ**

يعقوب..."، إذ كيف يكون يحيى، عليه السلام، وارِثاً لزكريّا وقد قتلا معاً، أو في وقتين متقاربين، والله تعالى يقول في سورة الأنبياء: " **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى**..." ؟! نعم، لقد طلب زكريّا، عليه السلام، في دعائه أن يهبه الله وليّاً يرثهُ ويرث من آل يعقوب فاستجيب له في يحيى، عليه السلام. وهذا يُشعر بطول لبث يحيى بعد أبيه، عليهما السلام.

رابعاً: " **يا زكريا إنّا نُبشّرُك بغلامٍ اسمهُ يحيى لم نجعلْ لهُ مِن قَبْلُ سَمِيّا** "، والسّميُّ هنا إمّا أن يكون مثيلاً في الاسم، أو مثيلاً في الصفة. فإذا كان السَّميّ هو المماثل في الاسم، فما ميزة أن يتفرد إنسان باسمٍ ما؟! وإذا كان السّميّ هو المماثل في صفة أو أكثر، فما هي هذه الصّفة، أو الصفات، التي تميَّز بها يحيى، عليه السلام، فكان هو أول من يتصف بها؟! وفي محاولة للإجابة عن هذا التساؤل نقول:

يستخدم الناس الأسماء لتمييز الأفراد بعضهم عن بعض، ولا يتم اختيار الأسماء عشوائياً، بل يعمد أغلب الناس إلى اختيار أسماء لها دلالات مُحببة لديهم، ومن ذلك أن يكون الاسم دالاً على صفة إيجابية. وعلى الرُّغم من ذلك فإنّ هناك الكثير من الأسماء التي لا تشير إلى صفات. أمّا أسماء الخالق سبحانه، والتي سمّى بها نفسه، فإنّها أيضاً صفات، فكل اسم منها يدل على صفة؛ كسميع، وعليم، وحكيم...، ولا مجال هنا للفصل بين الاسم والصفة.

عندما يُسمّي الله نبياً من الأنبياء فعلينا أن نتوقّع أن يدل هذا الاسم على صفة. فعلى سبيل المثال، سمى الله تعالى عيسى، عليه

السلام، **المسيح عيسى ابن مريم**، ولا بد لذلك من سر. وسمّى سبحانه الرسول، عليه السلام، محمداً وأحمد. وسمى يحيى، عليه السلام، بهذا الاسم قبل أن يولد ليدل على صفة بارزة فيه، كيف لا، والله تعالى يقول:" **لم نجعل له من قبل سميّا**"، واضح أنّ الآية تشير إلى تفرّده، عليه السلام، بصفة لم يسبقه إليها أحد من البشر، فما هي هذه الصفة، ولماذا أشار إليها القرآن الكريم؟

قد تكون هذه الصفة متعلقة بما ورد من أنّ يحيى، عليه السلام، لم يهم بمعصية قط. ولكن هذه الصفة لا تظهر في الاسم يحيى. والذي نراه أنّ الصفة التي تميّز بها، عليه السلام، ظاهرة في هذا الاسم الذي نزل به الوحي؛ فعندما سمّاه الله تعالى **يحيى** نتوقّع أن تتضمّن هذه التسمية الإشارة إلى السّر الذي يجعله، عليه السّلام، يتميّز عن غيره ممن سبقه. وإذا كان اسم كإبراهيم أو إسماعيل أو إلياس واضح العُجمة، فإن اسم يحيى لا يستشكل أنّه عربي، وعلى وجه الخصوص كصفة، وإن ذهب البعض إلى غير ذلك. وعليه فإنّ الصّفة التي تَميّز بها يحيى، عليه السلام، عن غيره ممن سبقه **أنه يحيا** وتطول به الحياة، أو أنّه يقوم بعد الموت ويحيا. ومعلوم أنّه لم يُنقل أنّه طال به العمر، أمّا قيامته فقد جاء في الإنجيل، الذي هو في أيدي النصارى اليوم، أنّ هيرودس شكّ أنّ يحيى، الذي يُسمّى في الأناجيل يوحنّا المعمدان، قد قام من الأموات: " هذا هو يوحنا المعمدان ، وقد قام من بين الأموات...". وهذا الكلام لا يُركن إليه، ولكن ورودهُ يثير التفكير. وقد ورد في الأناجيل أيضاً عبارة عجيبة

تُنسب إلى المسيح: " وإن شئتم أن تُصدّقوا، فإن يوحنّا هذا هو إيليا الذي كان رجوعه منتظراً، ومن له أذنان فليسمع! ". إلا أنه معلوم أنّ العُزير، الذي سبق يحيى عليه السلام بقرون، قد بُعث حيّاً، ومن هنا لا يتميّز يحيى، عليه السلام، عمّن سبقه بالرجوع إلى الحياة من بعد موت. وقد يُشكِّك البعض في صحة القول بأنّ الذي مر على قرية، وورد ذكرهُ في الآية **259** من سورة البقرة، هو العزير، وأنّه كان قبل زمن يحيى عليه السلام بقرون، ولكن لا مجال للشك في قيامة جماعة من بني إسرائيل في عهد موسىُ عليه السلام: " **ثمّ بعثناكم من بعدِ موتكم لعلكم تشكرون** " (البقرة: **56**). وعليه لا يكون المقصود باسم يحيى أنّه الذي يقوم بعد الموت، لأنّ هناك من البشر من سبق له أنْ بُعث من بعد الموت، وهذا لا يجعل يحيى، عليه السلام، متميّزاً على غيره كما هو ظاهر الآية الكريمة: "**لم نجعل له من قبل سميّا**". فما معنى يحيى إذن؟!

تشابه مُلهِم

في المقال السابق تحدثنا حول الاسم **يحيى**، ووضعنا القارئ الكريم أمام سؤال: ماذا يعني الاسم يحيى، وما السرّ في تسمية النبي الكريم بهذا الاسم؟! وقد يكون من التسرّع أن نبادر إلى إعطاء وجهة نظر في هذا الأمر، ولكننا في هذه العُجالة سنلفت الانتباه إلى بعض وجوه الشبه بين يحيى وعيسى، عليهما السلام، مما قد يساعد في الوصول إلى السّر من وراء هذه التسمية.

تُستهل سورة مريم بالحديث عن زكريا، عليه السّلام، وعن دعائه وطلبه أن يهبهُ اللهُ وليّاً يرثه في دعوته الصالحة. وتُصوّر لنا الآيات الكريمة دهشته عندما **بُشّر** بالولد الذي اسمه يحيى؛ جاء في الآية **8** من سورة مريم:"**قال ربّ أنّى يكونُ لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغتُ من الكِبَر عِتيّاً**".

واللافت هنا أنّ هذه الدهشة قد اعترت مريم، عندما **بُشّرت** بعيسى، عليهما السّلام، جاء في الآية **20** من سورة مريم: "**قالت أنّى يكونُ لي غلام ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغيّاً**". ونلاحظ هنا التماثل في التعبير عن الدهشة: "**... أنّى يكونُ لي غلامٌ** ". وكذلك نلاحظ التماثل في الإجابة عن هذا التساؤل، جاء في الآية **9** من السّورة:" **قال كذلكَ قال ربّكَ هو عليَّ هيّن...**"، وجاء في الآية **21**:" **قال كذلِكِ قال ربُّكِ هو عليَّ هيّن...**".

جاءت البشرى أولاً بيحيى، فكانت مفاجِئــة لزكريــا، عليــه السلام، وكانت التسمية مِن قِبلِ الوحي قبل ميلاد يحيى، عليه السلام. وكذلك الأمر في عيسى، عليه السلام؛ فقد جاءت البــشرى بمــيلاده مفاجئة لمريم، عليها السلام، وكانت تسميته مِن قِبل الوحي أيضاً.

كان ميلاد يحيى، عليه السّلام، مخالفاً للمألوف، فقد ولدتــه أمٌّ عاقر. وكان ميلاد عيسى، عليه السلام، على خلاف المألوف أيــضاً، فقد ولدته عذراء لم يمسّها بشر. وهذا تشابه لافت متعلّق بميلاد أولاد الخالة.

جاء في الآية **10** من سورة مريم، على لسان زكريــا، عليــه السّلام: "**قال ربّ اجعل لي آية، قال آيتُكَ ألا تُكلّم النّاس ثــلاث ليــالٍ سويّا**"، وجاء في حق مريم، عليهــا الــسلام، فــي الآيــة **26** مــن السورة:"... **فإمّا تَرينَّ من البشرِ أحداً فقولي إنّي نــذرتُ للــرحمن صوماً فلن أُكلّم اليومَ إنسيّاً**"، وجاء في الآية **11** من السورة:" **فخــرجَ على قومهِ مِنَ المِحرابِ فأوحى إليهم أنْ سَبِّحوا بُكرةً وعشيّاً**"، لقد تمّ الأمر بإشارة ولم يتكلم زكريّا، عليه السلام. وكذلك الأمر في قــصة مريم، عليها السلام. انظر الآية **29** مــن الــسورة:"**فأشــارتْ إليــهِ قالوا...**". جاء في حقّ يحيى، عليه السّلام، وذلك في الآيــة **14** مــن السورة :"**وبرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصيّاً**". وجاء في حق عيسى، عليه السّلام:"**وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً**". وهنــا نلاحــظ الآتي:

1. ليس من أساليب المدح أن ننفي عن الممدوح الصفات السلبيّة، وهنا تمّ نفي الجبروت والعصيان والشقاوة. فلماذا ؟
2. تاريخيّاً لم يتَّهم أحدٌ من النّاس عيسى أو يحيى، عليهما السّلام، بالجبروت، بل على النقيض من ذلك فقد وصف عيسى بأنّه رسول السلام، وكذلك الأمر فيما يتعلّق بسيرة يحيى، عليهما السّلام.

الذي نراه أنّ في ذلك نفياً لتُهم ستكون في المستقبل. وهذا مفهوم بالنسبة إلى عيسى وليس بمفهوم بالنسبة إلى يحيى، عليهما السّلام؛ فقد تواترت الأحاديث الدّالة على نزول عيسى، عليه السّلام، في آخر الزمان. وصحّ في الأحاديث أنه يحكم أربعين سنة، وورد أنه لا يَقبلُ إلا الإسلام، وبالتالي لا يقبلُ الجزية من أهل الكتاب. ومثل هذا الأمر قد يَحمِلُ المخالفين على اتهامه بالجبروت، أي أنّ صورته عند غير المؤمنين ستختلف؛ فبعد أن كان عندهم رمزاً للسلام يُصبِح في نظرهم رمزاً للجبروت.

أما يحيى، عليه السّلام، فلم يمارس جبروتاً، فمن أين ستأتي هذه التهمة؟! ومثل هذه الملاحظة تجعلنا نعيد النظر في فهم صفة **الحَصُور** الواردة في حق يحيى، عليه السّلام. جاء في الآية **39** من سورة آل عمران:"**فنادتهُ الملائكةُ وهو قائمُ يُصلّي في المحرابِ أنّ الله يُبشرُك بيحيى مُصدِّقاً بكلمةٍ من الله وسيّداً وحَصُوراً ونبيّاً من الصالحين**". وكلمة حَصُور هي على وزن فعول. وقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّها على معنى مفعول، أي محصور وممنوع من إتيان النساء.

والذي نراه أنّ الأقرب إلى ظاهر اللفظ أن نقول إنه حاصر لأعدائــه، ويؤيّد هذا وصفهُ بأنه سيد:"**وسيداً وحَــصُوراً**"، فهــو يــسود قومــه ويحصر أعداءه، الذين هم أعداء الحق. وهنا يثور سؤال: لم يُروَ في التاريخ أنّ يحيى، عليه السلام، قد حصر أعداءه، فمتى يكون ذلــك إذن؟!

جاء في حقّ يحيى، عليه السلام:" **وبَرّاً وبوالديه...**"، وجاء أيضاً: " **وسلامٌ عليه يومَ وُلِد ويوم يموتُ ويوم يُبعثُ حيّاً** ". أمّا ما يُقابلــهُ، مما جاء في حقّ عيسى، عليه السلام، فهو:" **وبَرّاً بوالدتي...**"، وجاء أيضاً:" **والسلام عليَّ يومَ وُلِدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعثُ حيّاً** ".

الدارس لأحاديث المعراج يلاحظ أنّ الرسول، صــلى الله عليــه وسلم، قد التقى في كلّ سماءٍ من السماوات السّبع برسول واحد إلا ما كان في السماء الثانية فقد التقى فيها بعيسى ويحيى، عليهما الــسّلام. فلماذا هذا كله، وإلى ماذا يشير؟

لم نقصد هنا أن نعطي الإجابة عن هذه التساؤلات، وإنما قــصدنا إثارة الدافعيّة لدى القارئ ليتابع مثل هذه الملاحظات وغيرها، فالقرآن مليء بالحِكم والأسرار، وعندما نتدبّرهُ بمنهجية سويّة يعطينا من وافر حِكَمه وأسراره. ولعلنا، في مقام آخر، أن نقوم ببسط وجهة نظرنا في هذه المسالة الجليلة.

الخاتمـــة

فالرجاء أن نكون قد نجحنا في إيصال بعض الرسائل، ومنها:

- القرآن الكريم يخلق المنهجية السّوية في التفكير لـــدى المُتـــدبِّرين. والذين يملكون هذه المنهجية هم الأقدر على تدبّر كتاب الله الحكيم.
- القِوامة هي حق للمرأة، وهي واجب على الرجل.
- صيغة الأمم ضرورة بشريّة، وهي رحمة ربانيّة.
- يتناسب الصبر تناسباً طردياً مع الإحاطة والعلم. والصبور حقيقـــة هو الذي أحاط بكل شيء علماً.
- الحياة قُرْبٌ وتآلُف، والموت بُعدٌ وتنافر.
- الهدف من الزينة خلق فارقٍ بين واقع الشيء وموقعه في الـــنفس البشرية، وكلما زاد هذا الفارق اشتدت الزينة.
- أهل الحق يملكون الحقيقة، والباطل يعمل جاهداً لإزهـــاق الحـــقّ بدافعٍ من الحسد.
- القدرة اللغويّة لدى الإنسان هي من أهم أسس التحضّر الإنساني.
- القرآن الكريم لا يَبخلُ على الغيب أن يُجَلِّيه، فنورهُ يُبينُ عن كـــلّ شيء.
- يتناسب الشعور بهول الموقف يوم القيامة تناسباً عكسيّاً مع صلاح الفرد في الحياة الدنيا.

مركز نون

القرآن الكريم كلام الله الذي لا تنفد معانيه، ولا تنقضي عجائبه، وهو المعجزة الخالدة، وكلما أحدث الناس ريبةً وشكوكاً جاءهم بالبرهان المبين. وإذا كان العلماء القدماء قد تحدّثوا عن الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فإن علماء هذا العصر يتحدثون في وجوه أخرى من الإعجاز، مثل: الإعجاز التشريعي، والتاريخي، والعلمي، والرياضي... وهذه الوجوه وغيرها جعلت مهمة المسلم اليوم أسهل في إقامة الحجة وتقديم البرهان؛ فالإعجاز الرياضي _على سبيل المثال_ يدحض الكثير من ادعاءات المستشرقين والمشككين. ويمكننا اليوم_عن طريق الإعجاز الرياضي_ أن نقدّم الإثبات الدامغ على أنّ القرآن الكريم منزّه عن الزيادة والنقصان، ويمكننا أن نثبت أن الرسم العثماني للمصحف هو توقيفي، أي بإملاء الوحي، وأن ترتيب السور هو توقيفي أيضاً. وما ينبغي أن نقوله أولاً أنّ هذا الوجه من وجوه الإعجاز يقيم الحجة ويقدّم والدليل على نبوة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى وجه الخصوص لدى غير العرب؛ لأن عالم الرياضيات هو عالم الحقائق، التي لا تختلف باختلاف اللغات.

ونظراً إلى أنّ الجهود الفردية لم تعد كافية للقيام بواجب بيان إعجاز القرآن الكريم، ونظراً إلى أنّ الأمر هو أكبر وأعظم من

قدرات فرد أو مجموعة من الأفراد، فقد كان لا بد من صيغة جماعيّة تساعد في تعميم الفكرة، وتساعد في تكثيف البحوث والدراسات، وعلى وجه الخصوص تلك المتعلقة بالإعجاز العددي للقرآن الكريم، فكانت فكرة إنشاء مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية.

غايات المركز :

أ. متابعة الدراسات الإعجازية و تطويرها، وعلى وجه الخصوص الإعجاز الرياضي.

لا بد لكل رسول من دليل على رسالته، و لا مجال لأن يكون هناك دليل غير المعجزة. وقد كانت معجزات الرسل السابقين، عليهم السلام، حسيّة تكفي لإقامة الحجة؛ حيث كانت الرسالات محدودة في الزمان والمكان. ولمّا جاءت الرسالة العامة و الشاملة كان لا بد أن تكون المعجزة فكرية، حتى تقيم الحجة في كل زمان ومكان. وتتصاعد المعجزة الفكرية بتصاعد الوعي البشري، ويأخذ الإنسان منها بقدر فهمه ووعيه. ولا شك أنّ الناس في هذا القرن هم أقدر على تقييم المعجزة الفكرية، لما يمتلكون من قدرات نقديّة ومعرفيّة.

ب. **متابعة الدراسات القرآنيّة المتعلقة بالمجتمع وتطويرها.**

القرآن الكريم كتاب هداية بالدرجة الأولى. ولم تعرف البشرية في تاريخها كتاباً استطاع أن يصنع أمة عظيمة كالقرآن الكريم، بل إنّ تأثيره وفاعليته تتنامى بتنامي الوعي البشري. ولا شك أنّ الكتابات المعاصرة في هذا المجال كثيرة ووفيرة، إلاّ أننا نطمح أن نقدّم

دراسات تتلاءم مع متطلبات العصر، كما و نرجو أن يسهم المركز في تصويب مسار البحوث والدراسات المعاصرة المتعلّقة بالقرآن الكريم، وذات الصلة بالمجتمع.

ج. **متابعة الدراسات والأبحاث في علوم القرآن الكريم، وعلى وجه الخصوص التفسير.**

تشمل مباحث علوم القرآن قضايا شتى ذات صلة بالقرآن الكريم منها: تاريخ تدوين القرآن الكريم، ورسمه العثماني، و القراءات، وتاريخ التفسير... ويطمح المركز إلى تقديم دراسات جادّة وجديدة في هذا المجال. ويستطيع الباحث اليوم أن يُثري هذا العلم بمعطيات الإعجاز الرياضي.

د. **التواصل والتعاون مع الدارسين والباحثين، وتشجيع روح البحث.**

يخيم على النشاط الفكري والعلمي في الأرض المباركة شيء من الركود. ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة، منها النزح المستمر للطاقات العلمية، واستمرار الصراع التاريخي الناتج عن كون فلسطين أرض رباط. ويمكننا اليوم أن نتغلب على هذه التحديات بجمع الطاقة العلمية المبعثرة وخلق أجواء مساعدة ومحرضة تُمكّن من إقامة مؤسسة فكرية واعية وملهمة للشعب الفلسطيني، وقادرة على أن تتواصل مع المؤسسات الفكرية في العالم الإسلامي. ولا شك أنّ تحقيق هذا الهدف يساعد كثيراً في تحقيق الأهداف الأخرى بإذن الله تعالى.

الوسائل :

أ. مكتبة تضم المواد المتعلقة بالدراسات والأبحاث القرآنية المقروءة والمسموعة والمُحَوْسبة، لتكون مرجعاً سهلاً وفي متناول الدارسين والباحثين.

ب. نشر الدراسات والأبحاث الصادرة عن المركز بوسائل النشر المتاحة.

ج. تنظيم ورش العمل، والندوات، والمحاضرات، والمؤتمرات.

د. التعاون مع الجامعات والكليات، وعلى وجه الخصوص ذوات الاختصاص.

الإشراف :

يشرف على العمل في المركز مجلس أمناء يتألف من عشرين عضواً. ويقوم هذا المجلس بتعيين مدير المركز والهيئة الإدارية.

دوائر العمل :

1. دائرة الأبحاث والدراسات.
2. دائرة العلاقات العامة.
3. دائرة الشؤون المالية.
4. دائرة المعلومات والمراجع.
5. دائرة الحاسوب.

من إصدارات مركز نون

إرهاصات الإعجاز العددي ـ مطبوع

يعطي هذا الكتاب فكرة مناسبة عن الإعجاز العددي في القرآن الكريم، ويقدّم أمثلة متنوعة على هذا الإعجاز. وقد صيغ بطريقة تُسهّل على القارئ استيعاب الفكرة، من غير إطالة أو تعقيد.

الميزان 456 بحوث في العدد القرآني ـ منشور على الصفحة الالكترونية

يكشف هذا الكتاب عن حقيقة العدد (456) وكونه ميزاناً تاريخياً، يتعلق على وجه الخصوص بتاريخ المسجد الأقصى المبارك. وتلتقي معطيات هذا الكتاب العددية بمعطيات كتاب زوال إسرائيل، ولكنه يتميّز بكثافة الأعداد ومفاجآتها.

رسائل نون ـ مطبوع

تعالج هذه الرسائل بعض القضايا الفكريّة، والتي قد تُشْكل على بعض المثقفين، وقد تُسْتَغَل من قبل المخالفين للتشكيك في الإسلام. وتتميز هذه المعالجات بأنها مختصرة غير مطوّلة. وقد تناولت هذه الرسائل المسائل الآتية:

1. الأئمّة من قريش 2. فتنة عثمان 3. نظرات في نظام الحكم الإسلامي 4. الإسلام والرق 5. لماذا خُلق الإنسان 6. الردّة.

ولتعلموا عدد السنين والحساب ـ مطبوع

يمكن اعتبار هذا الكتاب نظرات جديدة في آيات قصة أصحاب الكهف. وهو أيضاً دراسة عددية تُلقي بعض الأضواء على معنى (الرّقيم) في قوله تعالى:" أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم"، وتُجلّي بعض أسرار العدد 309، وتلتقي مع النتائج التي توصلنا إليها في كتاب زوال إسرائيل .

الكهف وصخرة بيت المقدس ـمنشور على الصفحة الالكترونية

يقدّم هذا الكتاب مفاجأة تتعلق بمكان كهف أصحاب الكهف، ويَخلُص إلى نتيجة ترجّح أن يكون كهف صخرة بيت المقدس هو كهف أصحاب الكهف والرقيم. ثم هو يقدّم مسلكاً جديداً في استخدام العدد القرآني للترجيح عند وجود الاحتمال.

من أسرار الأسماء في القرآن الكريم ـ مطبوع

نعم، حتى الأسماء يمكن أن تتجلى فيها المعاني والأسرار. كيف لا، ونحن نتعامل مع القرآن الكريم؟! وإن جاز لنا أن نُهمل دلالة الاسم في عمل فكري بشري، فهل يجوز لنا أن نفعل ذلك عندما نتعامل مع كتاب رب العالمين؟! فكل اسم ورد في القرآن الكريم لا بد أن تكون له دلالات وظلال.

معجم الفرائد القرآنية ـ مطبوع

يقوم هذا المعجم بإعطاء معاني الكلمات التي لم تتكرر في القرآن الكريم إلا مرّة واحدة، ولم يشتق من جذرها في القرآن الكريم إلا هي، وعددها (395) كلمة...

زوال إسرائيل 2022م نبوءة أم صُدَف رقمية ـ مطبوع

يُقسم هذا الكتاب إلى قسمين:

القسم الأول هو تفسير لنبوءة سورة الإسراء، والمتعلقة بقيـــام وزوال الإفساد الإسرائيلي من الأرض المباركة. والقسم الثاني يطرح نظرية جديدة في العدد القرآني تنسجم مع التفسير، وتشير إلى احتمـــال زوال إسرائيل عام 2022م...